ماجدة غرابو

البورناوت

BURN - OUT

انعتاق طالبة/ أستاذة من الجنون

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز نشر جزء من هذا الكتاب،
أو إعادة طبعه أو اختصاره بقصد الطباعة أو اختزان مادته،
أو نقله بأي طريقة سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير
أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من المؤلف مقدما.

الكتاب : البورناوت: انعتاق طالبة/أستاذة من الجنون
المؤلف : ماجدة غرابو
لوحة الغلاف : أشواق حجوم
التصفيف والطباعة : سليكي أخوين - طنجة
الهاتف : 05.39.32.31.80 - 06.61.17.08.78
الحقوق : محفوظة
الطبعة : الأولى - يوليوز 2019
الإيداع القانوني : 2019MO3551
الترقيم الدولي : 978-9920-625-08-1

إهداء

إلى روح أبي وأستاذي الأول في الحياة والذي افتقدته باكرا ، وإلى أمي حبيبتي فوق السبعينية أول مشجعة لي على إكمال دراستي الجامعية، إلى زوجي وحبيبي الذي تحمل معاناتي بكثير صبر مع حبي وتقديري، ولابنتي أشواق محفزتي الصغيرة القوية المؤمنة بي، وابني أسامة ذي الأخلاق النبيلة.

إلى إخوتي الأعزاء وصديقاتي الغاليات الذين تركوا البصمة الكبرى في حياتي.

وإلى جميع أساتذتي الأجلاء بشعبة السوسيولوجيا بدون استثناء ، مع كل التقدير والشكر والاحترام والامتنان للدكتور عبد الرحيم تمحري الذي أحاطني بكل التشجيع والرعاية الفكرية، وكان سندي في كتابة سيرتي الذاتية هاته، وشحنني بكل الثقة التي افتقدتها في حياتي باحتراقي المهني.

أشكركم جميعا .

تقديم

هذا العمل مثير حقاً بأسلوبه وأفكاره، فرض عليَّ أن أقتنع بأنك ذات قلم رائق، وأن عليك بالاستمرار في الكتابة الذاتية لتتحرري من أسر حوادث الماضي.

كما أرجو أن تنشري هذا العمل بعد إتمامه في أقرب وقت، وأن توزعيه في الكليات الجامعية، بدءاً بمارتيل، فهو شفاء للطلبة، كما أرجو أن تشاركي به في مسابقات ثقافية سواء داخل المغرب أو خارجه في المشرق العربي، لأنه متميز كذلك بمعالجته لموضوع نفسي مهني يهم المشتغلين بالتربية والتدريس أعني الاحتراق المهني لدى الأساتذة وخاصة لدى الإناث.

د. عبد الرحيم تمحري
أستاذ علم النفس والتربية
بكلية آداب تطوان

هذه كلمة صادقة من معلمة عانت من مرض نفسي قاهر، ولم تفهمها إدارتها أو أسرتها إلا قليلا. وتحدَّتْ نفسها بالدراسة والعلم والتحصيل فتحولت إلى طالبة جامعية تدرس مشاكل وظواهر المجتمع. أنقذها أساتذتها وحيويتها الدراسية فأدلت بشهادتها على معاناتها وعلى تجربتها عسى أن تفيد المعلمين والطلبة والوزارة.

د. عبد الرحيم تمحري

مقدمة

لم أفكر يوما في أن أكتب سيرة ذاتية، فحياتي ليست بثراء حياة نوال السعداوي أو مغامرات كازانوفا أو صدمة وقسوة حياة محمد شكري! فما أنا إلا أستاذة أو معلمة بسيطة عاشت حياتها بكل هدوء وهي تحادي الجدران، تحلم بغد أفضل لأبنائها وأسرتها الصغيرة. وما هذه السيرة الذاتية إلا صرخة نملة/ أستاذة في هذا المجتمع بصوت جميع ممتهني مهنة التدريس الذين احترقوا مهنيا دون أن يفهموا ما أصابهم ودون أن يجدوا من يشد بأيديهم وعلى عضدهم لينعتقوا من مصابهم، فمنهم من ظل قابعا في قسمه شبه ميت وكأنه جذع شجرة خاو محترق إلى أن تقاعد، ومنهم من انتهى به الأمر كالمجذوب في الحواري والشوارع أو البراري، ومنهم من انتهى به الأمر في مستشفى المجاذيب أو المجانين ومنهم من انتحر منهيا عذابه وصراعه مع الواقع رغم إيمانه الشديد ووثوقه بالله أكثر من أشد الواثقين به سبحانه. فدافعي الأول لكتابة سيرتي الذاتية هو إصابتي بمرضي الذي أتقدم له بجزيل الشكر، وممتنة له أيما امتنان لإصابتي به، فهو كان دافعي للخلاص إما منه أو من الحياة، وصدفة كنت من المحظوظين لوجود أشخاص رائعين بحياتي وجدتهم حولي كما الخبيثين لدفعي بقوة وللتحدي لأظل بهذه الحياة وهذه الدنيا لأتقاسم معاناتي بمرض "الاحتراق المهني" المشخص بمرض القلق الذي أثار اهتماما خاصا لدى أحد أعلام الحرية الوجودية كيير كيغارد (Kier Kegard) من حيث هو دافع إلى الإنجاز والإبداع، ويراه

كييركيغارد -أي القلق الخلقي- على أنه موجود منذ عصيان آدم عليه السلام ربه. ولكنه لا يتضح لدى الفرد إلا بعد ارتكابه إثما يعترف به أو يكون منبعا للإبداع، وبأن قوة النفس تنبثق من نجاح الفرد في مواجهة الخبرات التي تثير القلق، فالقلق سبيل إلى نضج النفس الإنسانية وتفتحها عن طبيعتها العميقة الخلاقة، ولكنه يقود إلى الانسحاب أحيانا بدلا من الخلق والإبداع، ويمكن أن يتطور إلى عصاب شديد الأثر.

فانبثقت أولى بوادر هذا الانعتاق والخلاص والخلق حين فكرت في أن أتابع دراستي الجامعية بشعبة السوسيولوجيا وأن ألقى أساتذتي الأجلاء الذين أتوجه إليهم بكل الامتنان والاحترام والتقدير، فلم يبخل أساتذتي[1] علي في شعبة الفلسفة ومسلك السوسيولوجيا على إمدادي

1- وكذا لم أستطع إلا أن أمتثل لنصائح وتشجيعات الدكتور عبد الرحيم تمحري لي كي أستمر في الكتابة رغم أن هذا ما طمحت إليه منذ البداية بعد أن وطأت أقدامي رحاب الجامعة، لكنه وبتمرسه في مهنة التعليم وتخصصه في علم النفس وضع يده على الجرح وعلى الألم، ومهما كان ترددي وتراجعي فكيف لي أن أقاوم كل ذلك الدعم بكلماته التحفيزية لي المرسومة بخطه الجميل على مسوداتي ذاك الخط الذي سيصبح مثله من الندرة بما كان في هذا الزمن التكنولوجي المرقن، وحرصت على نقل كلماته الداعمة لي كلما حملت إليه بعض الأسطر لتنقيحها بخطه الجميل الذي تضاهيه جمالا معاني ومقاصد تعابيره، حتى أني تمنيت لو أستمر في الكتابة وتجزيء ما أكتبه وتمطيطه من أجل تشنيف مسامعي ونفسيتي بكلماته الرائعة التي كانت كالتالي:

- على الرغم من أن هذا العمل غير كامل، فهو مثير حقا بأسلوبه وأفكاره، أنصحك بالاستمرار في الكتابة عن الذاتي ثم تنشرينها مستقبلا لتتحرري. كما أنصحك بالانتقال بعد هذا إلى صوغ ما يهم موضوع بحثك.
- أرجو أن تواصلي الكتابة عن الذات لتتحرري من أسر حوادث الماضي، كما أرجو أن تشرعي في كتابة هذا البحث الذي يخوض في نفس الموضوع ألا وهو الاحتراق المهني أو البورناوت Burn-out لدى موظفي التعليم الأساسي للتخرج.
- اقتنعت الآن من خلال هذا العمل بأنك ذات قلم رائق، وأن عليك بالاستمرار في الكتابة الذاتية وتشاركين بها في مسابقة ثقافية بقناة تلفزية مغربية أو في المشرق العربي بعد إكمالها.
- أرجو أن تنشري هذا العمل بعد إتمامه في أقرب وقت، وأن توزعيه في الكليات الجامعية، بدءا بمارتيل، فهو شفاء للطلبة.
- إنك قاصة بامتياز! واصلي ثم انشري هذا العمل في القريب.

بالطاقة اللازمة لأواصل دراستي وبكل التشجيع لأتطور في عطائي وكتاباتي، فكانت الدراسة بالنسبة لي شفاء وبلسما، وكانت الكتابة تحررا من أسر الذات وميلادا منبثقا من الرماد والاحتراق وأسر المرض ومن ضروب الجنون من زاوية النظر المغربية.

- باستثناء الأقوال التي ينبغي وضعها بين مزدوجتين، فهذا العمل يستحق أن ينشر بعد الانتهاء منه واخبار الطلبة به والأساتذة في مارتيل.
بكلمات الدكتور عبد الرحيم تمحري هاته التي كانت في كل مرة تحفزني أكثر وتنتشلني من براثين الظلمة الحالكة ومن ذلك الجب الذي سقطت فيه بعد احتراقي مهنيا، أجدد شكري اللامحدود على ما منحني إياه الدكتور تمحري من وقت وصبر واهتمام وإنصات لا مشروط.

ومضات من حياة طالبة ميتة

هي مأساتي الحقيقية التي عشتها دون وسيط في الحكي، أو راو ذي خيال واسع ينوب عني، بل هو ذلك الحزن كله وذلك الألم الذي يعتصر نفسيتي، وذلك الخوف من الخروج أو ذلك الهروب من النفس، والحزن الشديد الذي يصعب وصفه على كل من عاشه، لأنه يعاش ولا يوصف، كما يقول توفيق الحكيم[1] عن اللحظات السعيدة في كتابه "زهرة العمر" أنها تعاش لحظة وقوعها ولا توصف، فهكذا عشت أياما بل أشهرا لمدة فاقت السنتين، هي مدة من الاحتراق المهني قضيتها ولا زلت وأنا أسميه الموت المهني.

ودون أن أدرك ما يقع لي بداية الأمر، ودون أن أعرف ما بدأ يلم بي شيئا فشيئا في محاولات مبدئية مني في تغيير مهمتي المهنية يعني ألا أدرس، ألا أستقبل أباء وأمهات التلاميذ، ألا أرى مدرسين أو مدرسات، ألا أتعامل مع أي أحد من أفراد المؤسسة، بدأت الحكاية بادئ الأمر بأمنيتي لو أطير محلقة دون أن يراني أحد وألا أرى أحدا، وأن أجد نفسي في الفصل أدرِّس، لأن هذه هي المهنة الوحيدة التي أعرف، والتي زاولتها وسني لا يكاد يتجاوز الواحد والعشرين سنة، وهي المهنة التي

1- زهرة العمر: هي سيرة ذاتية لتوفيق الحكيم، لكنها مختلفة عن غيرها من السير الذاتية من نصوص المذكرات المعروفة لأنها عبارة عن مجموعة رسائل كتبها توفيق الحكيم إلى صديقه "اندريه" في باريس بحيث يصف فيها حياته كطالب يدرس القانون في فرنسا كما يذكر فيها أساليب الأدب وأنماطه والفن وأشهر المقطوعات الموسيقية، وكل أنواع الفنون، ثم تعرض فيها إلى البحث عن الذات والحب وعن نظرته بصراحة عن مصر وقتها والحياة الفكرية بها وآراؤه في مثقفيها.

نشأت عليها ومعها وبها في بيت أسرتي تحت كنف أبي رحمة الله عليه الأستاذ الذي يعشق هذه المهنة "التعليم" ولا يعلى عليها بالنسبة اليه، كما يمارسها العديد من أفراد أسرتي الكبيرة فهم يمتهنون نفس المهنة، اثنان من أخوالي واثنان من أعمامي وأختي أيضا.

من لم يعش هذا المرض أو هاته المعاناة فلن يعرف كنهها! ومن لم يعشها مع قريب له فلا يمكنه لمس خطورتها وألمها وعذابها!! فهل يمكن لألم الاحتراق بالنار أن يوصف وأن ويحس به المستمع إليك دون أن يجربه؟؟ هل يمكن أن يحس بتآكل جلدك وما تحت جلدك وكأنه أنت؟؟؟ فلا يمكن لبعض الأحاسيس الإنسانية أن يحس بها من لم يعشها! ولا يمكن أن يلمس مدى عمقها وألمها وعذابها من عاش بعيدا عنها ومن لم يجربها.

تلك كانت المرحلة الأولى من موتي المهني، ذلك الإحساس بالكره الشديد اتجاه من يعملون معي، أو على الأقل عدم رغبتي في رؤيتهم، خصوصا وأنهم يشككون فيما أصابني، كرههم لأنني أحترق أمامهم وهم ينظرون إلي باستغراب -فمنهم الشامتون أيضا- وكرههم لأنهم لم يقدموا لي أية مساعدة وأنا أحترق أمامهم وأموت كل يوم. أو على الأقل تمنيت أن يتفهموا حالتي، بل إن البعض منهم كانوا ينسجون ما ينسجونه من حكايات حولي: «ما بها؟ ماذا ينقصها؟ هل ألمت بها مصيبة وتنكرها علينا؟» هذا ماكان يصل لمسامعي وأحسه بنظراتهم إلي. ثم بدأت ودون أن أدري البحث عن كل الوسائل التي أنقذ بها نفسي من ذلك الجحيم بالنسبة لي "التدريس" أبحث عن البديل أي بديل! ومهما كان! وبأي ثمن...! فأقرب المقربين لي ما يزالون مندهشين، وأنا نفسي أتصرف دون أن أفهم! كل ما أحس به حينها، الحزن الشديد، ورغبتي في الهروب من كل شيء، عملي، بيتي، زوجي، أولادي! العالم بأسره

مع أنني أوصف "بالبيتوتية" وأوصف بالبشوشة والاجتماعية جدا! كل هاته الصفات تبخرت وذهبت أدراج الرياح، أصبحت لا أعرف نفسي.

لأذكر من بعض كلمات زوجي لي غير أنه يريد فقط استرداد زوجته إليه، ولا يريد أن أضيع منه، وأنا لا أملك لنفسي حولا ولا قوة، فقد كنت أهوى في قاع مظلم، لا قرار له ولا نهاية، ولا يوجد فيه بصيص شعاع من نور.

بدأ كل اهتمامي وتوجهي ينصب إلى أن أعمل بالإدارة، ليس حبا فيها، فلم أفكر فيها يوما طيلة مدة عملي لأكثر من عشرين سنة، بل لأنها الفرصة الوحيدة أمامي وملاذي الأوحد لأنقد نفسي بإحساسي ذاك وأنا مريضة متألمة. فقدمت طلبي لأعمل كمديرة بأماكن أعدها الآن منفى انتحاريا لو كنت قبلت بها، لأنها مدارس تبعد عن بيتي بأكثر من مائة كيلومتر، كنت سأفقد معها استقراري الأسري وأغيب عن أولادي مدة أسبوع على الأقل وهم في أحرج فترات عمرهم -مراهقتهم- التي صنعناها بتنشئتنا الاجتماعية لهم، كما تقول بذلك أبحاث "مارغريت ميد"[1].

وكانت مقرات بعض المؤسسات في أماكن غير معبدة الطريق، وصعب

1- مارغريت ميد: (1978-1901) تعتبر الباحثة الأمريكية مارغريت ميد واحدة من أبرز رائدات الأنثروبولوجيا وسيدتها الكبيرة، والشخصية البارزة في المدرسة الثقافية، حيث تتلمذت على يد (فرانس بواز) بجامعة كلومبيا، التي حصلت منها على الدكتوراه سنة 1929، وقد أنجزت أولى دراستها الميدانية حول موضوع "سن البلوغ في ساموا" في كتابها الذي أحدث ضجة (coming of age in samoa 1927) ثم دراستها الثانية حول التربية والتنشئة والنمو" بغينيا الجديدة سنة 1931وألفت كتابا أساسيا: (Sex and Temperament in three Primitive Sositiers 1935) حيث أبرزت الأنماط التي تتبعها هذه الشعوب في تربية أطفالها.

قامت الباحثة من خلال هذه الدراسات بتجديد النمط الثقافي لكل مجتمع عبر دراسة مسلسل التنشئة الاجتماعية عنده، فالقواعد والعادات والمؤسسات الاجتماعية تشكل نظاما ثقافيا يصوغ الشخصية القاعدية للأفراد. حيث نشرت نتائج دراستها لثلاثة قبائل بغينيا الجديدة بين سنتي (1931 و1933). ثم لها كتاب أكثر عمومية بعنوان:(L’un et: l’autre sex 1949).

الوصول إليها، حتى أن بعض عمال الطرق نبهونا من خطورة المكان ونحن نبحث عنها، كان زوجي وأبنائي برفقتي حينها، أما لو كنت قبلت لأعمل بها، وكانت نقطي المهنية تخول لي ذلك لكنت ضعت وضاعت أسرتي معي. وطوال الطريق ونحن نقطع كلومترات في ممرات وعرة غير معبدة، وزوجي يكرر علي طرح السؤال نفسه كل مرة: «هل أنت مصممة أن نستمر في البحث؟» وكل مرة أجيبه بالإيجاب. وكأنني لا أنتمي لذلك العالم الذي نسير إليه، كل ما أذكره أنني أود الهروب لأنني أصبحت ميتة في العالم الذي أتواجد به.

وكلما مرت الأيام وأنا بعملي كلما ازدادت حالتي سوءا، ولا يحس بحدة التغيير إلا أنا أو بالأحرى المقربين مني خصوصا زوجي، أما أبنائي المساكين فهم ينالون مني ما ينالوه من سوء المعاملة.

بعدها جاءت مرحلة الدموع الصامتة التي تنزل من مقلتي بدون توقف، حين أدخل بيتي أو حتى وأنا داخل الفصل -مع أن دموعي حسب المألوف مستعصية النزول- دموع يرافقها حزن شديد، حزن من ماذا؟ لا أعرف! حزن على ماذا؟ لا أعرف! كل الذي أذكره أن الأفكار تتضارب برأسي دون توقف، وتخيلات مأساوية مني اتجاه أولادي تعتصر قلبي ودماغي وكل نفسيتي، لا أحبذ حتى تذكرها بيني وبين نفسي، فبالأحرى تذكرها بيني وبين الورقة والقلم الآن.

بدأت في قطع الصلة مع كل ما أنتمي إليه حتى بيتي. أنا الحريصة على كل صغيرة وكبيرة به، أصبح لا يعنيني أنا الحريصة على أن أوفق بين عملي وبيتي وألا يتضرر زوجي وأولادي من أي نقص بسبب عملي. أصبح أكلهم شربهم وترتيب البيت وما يلزمه، كل أمور الحياة لا تهمني، لأنني حينها كنت ميتة وأكثر من محترقة مهنيا، لهذا سميته الموت المهني لأنه يؤدي الى الموت الحياتي أو الموت المجاني.

الكل يتساءل: «ما بها؟ إنها لا تحتاج شيئا؟ فلا ينقصها ما ينقص غيرها؟ ولم يحرمها الله من شيء!!!».

حتى أن هناك بعض الظرفاء من أقاربي من حلق بهم خيالهم الواسع الى درجة أن أحدهم سمع صوتي عبر الأثير أشكو زوجي وكونه سبب معاناتي، وقالوا أنه هو السبب في انقلاب حياتنا بعد رحيلنا الى مدينة البوغاز! مع أني لم أحاول ولو مرة بحياتي أن أتكلم عبر المذياع، بل على العكس من ذلك تماما. فقد اقترحت علي مرة إحدى الأستاذات اللواتي تعرفت عليهن خلال تكوين بخصوص (اكتساب آليات تسيير وإدارة وتنشيط مكتبة)، أن أطرح ما أعاني منه في مقر برنامج أثيري بمدينة طنجة له حيز زمني معين خاص به، مع توفير الصحافيين المنشطين لطبيب نفساني مختص وأحد الباحثين في الموضوع، لكن حين استشرت مع زوجي، لم ألمس تقبله وترحيبه بالفكرة! فاحترمت رغبته، واعتذرت للأستاذة.

أما زوجي الذي يتوهمون أنه السبب فيما وقع لي، فلولا تواجده بحياتي لكان مصيري الآن شيء آخر! فقد كان في ذروة مرضي يبكي بجانبي متسائلا: «هل لي علاقة بما أصابك؟ ماذا عساي أفعله كي ترتاحي؟» وكان ملازما لي -كما عهدته- في كل مراحل مرضي، لا يبخل علي بكل ما أحتاجه وحتى مالا أحتاجه، ولا أظن أنه توجد نساء كثيرات في هذه الدنيا من استمتعن وتدللن وعُشقن أكثر من عشق زوجي حبيبي لي. لكن تبقى فكرة المذياع الذي سمعوا شكواي عبر أثيره تبريرا شافيا لبعض النفوس المريضة ذات الخيال الفضفاض.

فالأشخاص في أحايين كثيرة لا يتركون لك حتى الحق في المرض أو الحق في الانزواء أو الابتعاد عنهم، أو الحرية في التكتم عن بعض أمور حياتك الخاصة أو احترام جهلك تفسير مالم تستطع فهمه. أنت نفسك عن نفسك.

ينصحونني: «جددي علاقتك مع الله! ثقي بالله، وفوضي له أمرك، جددي إيمانك!؟ استمعي لتلاوة القرآن!؟ حاولي اللجوء للرقاة الشرعيين!» سمعت الكثير لكني أذكر أنني كنت في ملكوت وحدي، لا أعي ما يقولون، وأستفز أكثر بكلامهم، وأقول في نفسي إنهم لا يشعرون بي وبدواخلي، كيف لي أن أشرح لهم؟ حتى يحسوا بي! هل الذي يده في النار كالذي يده في الماء؟ ليسوا سيان البتة، بل هو النقيض تماما، وهو نقيض النقيض والذي لا يمكن لأحدهما أن يحس أو يشعر بأحاسيس أو شعور الآخر.

بدأت وثيرة النوم تقل لدي بشكل سريع ورهيب، ثم بدأ النوم يفارق جفني! وكل يوم علي الذهاب للعمل؟ فماذا عساي أن أفعل؟ فالدماغ مشلول، وعلي إيجاد الحلول أو فهم ما يقع! فأنا تلك النشيطة التي تحب المزاح والضحك كثيرا، تلك المحبة للحياة ولعملها، وتجدد فيه قدر المستطاع مثل باقي الأمور الحياتية الأخرى حتى لا تمل. أين تبخرت هذه الأشياء لا أعلم؟ أصبحت داخل وعاء محترق متفحم، لا أعرفه لكن ما بداخله هو أنا في تلك المرحلة.

الناس نيام وأنا في أوج الصحو ليلا، لم تعد قراءة الكتب تجلب لي النوم كما تعودت إذا أصابني الأرق! لم تعد مشاهدة التلفاز تستهويني كما كانت من قبل أو أطيق حتى النظر إليها! الانترنيت أيضا بكل عوالمه الافتراضية أكرهه؛ قراءة القرآن وسماعه لا يغيران شيئا، الصلاة ليلا لمدة طويلة متضرعة إلى الله أن يعينني في محنتي لا تساعدني على جلب النوم. أصبحت أقصى ما أتمناه حينها أن أنام. أن أرتاح فأنا أتعذب وأعذب زوجي معي. وطول الوقت ألح عليه في إيجاد حل لي، أن يفعل أي شيء لإراحتي وليس بيده شيء يفعله، وطوال الوقت يسألني ماذا ألم بي؟ ماذا يقع لي؟ فقد تعود أن أكون مصدر فرح في

بيتنا وحيوية ونشاط وشغب مستحب منه ومن أبنائي، فأنا لا أتركهم على حالهم، فدوما أقتحمهم بإثارتي لهم بكل الطرق، فهم حياتي التي أحياها ولأجلها. أحيانا يبكي بجانبي وأنا أبكي ويقول لي: «أريد فقط استرداد ماجدة زوجتي»، وأنا أنظر إليه ولا أفهم عمن يتكلم؟؟ من هذه التي يتكلم عنها؟ كل ما أعرفه أنني أريده أن يبتعد عني! وألا يسألني شيئا، وألا يضع يده علي حتى ولو بلمسة بسيطة ولو مربتا على كتفي، أو وهو يسألني ماذا ألم بي؟! لأني أحس بيده تحرقني وتؤلمني ولا أريد رؤية مخلوق معي أو أمامي!

أصبحت أدخل من عملي وعلى أول فراش في مدخل بيتي أرتمي، أبقى كما أنا بملابسي، ولا يهمني أكل ولا شرب ولا شيء في الكون، ولا يهمني أولادي ولا يهمني بيتي أو ما حل به، مع أني كنت آخر من تنام بالبيت بعد مجموعة ترتيبات منها الحرص على تغطية أبنائي وتقبيلهم وهم نيام. أصبحت لا أفارق أقرب مكان لباب الشقة ودورة المياه للضرورة، إذا جلبوا لي ما آكله فذاك، وإذا لم يعطوني شيئا فلا يهمني ولا أبالي، كل ما أعرفه أن الليلة التي سأمضيها ككل ليلة ستكون بدون نوم وسأمضيها بألم وحزن شديدين.

ستتوالى ليالي كثيرة على هذه الشاكلة وسأبدأ الحركة والكل نيام ذهابا وإيابا، أطل من الشرفة! أتحرك ولا أستطيع الركون لمكان أو أن أهدأ، لا أعمل شيئا يفيد أحدا، مجرد حركة دؤوبة لا غير، وكأنني أبحث عن النوم في تلك الحركة، ثم بعدها سأصل إلى مرحلة أخرى! أنا المتفائلة المرحة القنوعة الراضية السعيدة بزوجي وبأولادي، السعيدة بأغلب أوضاعي أو بمجملها، لا أشكو من ضيق في أي أمر من أمور حياتي. سيزداد الأمر سوءا وأنا في حركتي الليلية ككل ليلة، سأبدأ بالذهاب إلى الشرفة أكثر من أي مكان آخر في البيت وأنظر الى أسفل

وأنظر... وأفكر والأفكار تتصارع في ذهني. هل أفعلها؟؟؟ لأنتهي من هذا الحزن وهذا الألم، ولأن لا شيء يستحق الحياة... أنا القاطنة بشقة في الطابق السادس!!!

كيف بدأت أفكر هكذا؟ لا أعلم كيف وصلت الى هذه المرحلة والى هكذا نوع من تفكير؟؟؟ لا أعلم! كل ما أعرفه أنني أتعذب وعلي أن أرتاح وأن أنهي هذا العذاب بأية وسيلة! لأنني بحثت بطرق كثيرة أن أغير وضعيتي، أن أطالب بإعفائي من التدريس، وأن أعمل بوزارة التربية والتعليم لكن بامتهان أي دور آخر لكن ليس في الفصل. فتهت داخل ترسانات من القوانين التي تقود الى دهاليز معقدة من الإجراءات غير الواضحة والمضمرة، فلم أجد لذلك طريقا أو سبيلا واضحا.

بدأت وأنا في طريقي إلى العمل أغير وجهة سيارتي وكأنها هي التي تقودني ولست أنا التي أقودها، لأجد نفسي في مكان آخر. مرة ذهبت بسيارتي التي توقفت جانب الشاطئ، فارتميت على الرمال والدموع تنهمر من مقلتي دون توقف، وذلك الحزن الشديد دائما، ارتميت أمام الناس غير مبالية بأحد ووجهي في الرمال.

إنه "البورناوت"، المرض المتخفي، المرض الغير اجتماعي والذي تقطع فيه التواصل مع الناس، وهو المرفوض مهنيا والغير معترف به اجتماعيا، فأعراضه لا يحس بها إلا من يعيشها دون إدراك الشخص نفسه ماهيتها؟!

إنه الموت المهني الذي هو أكثر من الاحتراق المهني، إنه الموت الحياتي، الموت المجاني، لأن حلوله هي ذلك السهل الممتنع، لكن من سيوقف هذا الزلزال الذي يدمرني؟ ومن سيصد هذا الطوفان الذي يغرقني ويكاد يبتلعني؟ فحلوله من المفروض أن تكون سريعة جدا وتوجب التدخل في أسرع وقت، لكن لا يكون تدخل البتة لأن لا أحد يحس

بأعراض صاحبه الذي يعاني منه. فالكل يعاني معك خصوصا المقربين منك، لكن لا أحد يدرك ما بك، حتى التلاميذ أنفسهم ينظرون إليك بريبة وربما خوف ووجل إلا أنهم لا يفهمون ما صرت فيه، أصبحت أطردهم من الفصل بشكل ثلاثي أو رباعي أو أكثر وأغلق الباب بكل قوة غير مبالية، مع وعيي الشديد ومعرفتي الكاملة أن ذلك مرفوض مهنيا، لأنهم أطفال صغار وذاك ممنوع مهنيا وقانونيا أيضا، في التعليم الأساسي على وجه الخصوص.

فكرت يوما أن أطرد كل التلاميذ من الفصل وأغلقه علي، وألا أخرج حتى يخرج كل من بالمؤسسة، فالضجيج يطنن وسط دماغي ويصدع لي رأسي مع قلة نومي، وليال كثيرة انعدام هذا النوم!

جاء الفرج أخيرا -صدفة لا غير- كان بعد إحدى المشادات القوية بيني وبين زوجي أطالبه خلالها بأن يجد لي حلا بالنسبة لعملي الذي أصبحت أكرهه أو بالأحرى لا أستطيع ممارسته، وإلا سأخرج وأترك عملي مضحية بكل حقوقي المادية وسنين عمري بعد عملي لأكثر من عشرين سنة وأترك بيتي -هذه الفكرة راودتني بإلحاح مرات ومرات- وفي لحظة غضب منه وعلى غير طبعه وسجيته، قال وهو يصرخ: «إنك مريضة ويلزمك الذهاب عند طبيب نفساني»، قالها بشدة وبقوة وهو يصيح، استوقفتني هذه الجملة منه لحظات، لذت بالصمت، فكرت فيما يقول، وداخلي يتساءل: «هل جننت؟؟؟» لم يقلها مرة في حياتنا الزوجية، لمدة فاقت الثمانية عشر سنة!

لحظات يعيشها الإنسان وكأن الزمن فيها يتوقف، مع أنه سائر نحو الأمام إلى ما لانهاية، لكن يحس خلالها الواحد منا وكأن دماغه مشلول ولا يستطيع التفكير، وأن كل ذرة في جسمه لا تتحرك وضائقة هي الدنيا به، وتطول لحظات مثل هذا الزمن وتطول حتى يخيل للمرء أنه حبيسها

سجينها وأنها تخنقه بشدة الألم، فالأزمة تخنقه وكأن حبلا ملفوفا حول عنقه مشدود إليه، لا يستطيع أن يبرحه ولا يقوى على مد يده إليه ليزيله عن رقبته، ويبقى الوضع جامدا وخانقا آسرا له. لا نستطيع له حولا ولا قوة منا، ننتظر الفرج من قوة خارقة خارجة عن ذواتنا لفك أسرنا، نطلب النجدة من العدم. الآخر لا يحس بنا، لا يفهمنا ولا نستطيع البوح، ليس كل منا يمكنه البوح للآخر، وليس كل ما بنا نقوى على البوح به مهما كانت صراحتنا ووضوحنا باديان علينا ويميزاننا عن كثيرين، هي أشياء غامضة تكبلنا، فكلنا مكبلون مغلولون حتى رؤوسنا ومن أخمص أقدامنا، محبوسون مقيدون مهما فكرنا وتجردنا من هويتنا الداخلية، فلكل منا هويته المجهولة التي تخنقه داخل هويته المعلومة.

فذواتنا خارج سيطرتنا، خارج تحكمنا، خارج توجيهنا. هي أناتنا الغارقة في الغموض حتى بالنسبة لنا. ألا تأتي على كل منا لحظات خانقة يشل فيها تفكيرنا ونعجز فيها عن التصرف وعن إيجاد الحلول أو إيجاد أنصاف الحلول حتى. هي لحظات خارج إرادتنا، أحيانا لا يد ولا حيلة لنا فيها غير أننا ذلك الانسان الواعي العاقل، أحيانا يكون الحل هو أن تكسر على الأقل كل ما يحيط بك وأن تقذف في وجه بعض من هم أمامك بأي شيء في يدك، أو أن تصفع على الأقل من هو أمامك بكل ما أوتيت من قوة، لعل وعسى لنار صدرك أن تهدأ وأن يتحرك تفكيرك المشلول قليلا لتحس أنك تتحرك وتتحرر كأضعف إيمان.

سنة موت/ سنة حياة...
سنة شؤم/ سنة أمل

مع بداية الدخول الدراسي 2017/2016 وبعد تمضية عطلة صيف ليست ككل عطلة، وليست كسابقاتها التي أمضيتها طيلة حياتي، ختمت بسنة دراسية قبلها حالكة مظلمة لا نور فيها بالنسبة لي، وغير مفهوم ما ألم بي خلالها! وما كل تلك الحلكة والظلام اللذين يحيطان بقلبي دون أن يلحظهما أحد ودون أن يعي أحد مدى حلكتهما، ومدى ضيق صدري ونفسي بحياتي؟

ستمر العطلة الصيفية بمآسيها وبظلامها، ورأسي يكاد ينفجر أنا التي تعودت أن أكون مرحة وفي أوج راحتي النفسية والمعنوية خلال العطلة الصيفية. فنهاية السنة الدراسية بالنسبة لي دوما يليها أول يوم تاريخ ميلادي الذي يتصادف والفاتح من شهر يوليوز مباشرة بعد الثلاثين من شهر يونيو وهو بالضبط يوم توقيعي على محضر الخروج أو محضر نهاية السنة الدراسية -حسب النظام القديم- يليه أول صباح يوم مولدي، فيوم ميلادي هو يوم تحرري من المدرسة سواء وأنا طفلة ومراهقة وشابة وأنا أدرس وأتعلم، أو تحرري من التلاميذ والتدريس وأنا أدرس وأعلم الآخرين. فمن الجلوس على الطاولة مباشرة وقفت في القسم وأمامي الطاولات بعد سنتي تكوين بيداغوجي بمركز ”المعلمين والمعلمات بمدينة الجديدة“، بعدها امتهنت مهنة التدريس مباشرة، ودون أن أجرب أن أكون معطلة كأغلب الشباب المعطلين، فمن مقعد طاولة التلميذة إلى كرسي مكتب الأستاذة، الذي لازال بنفس شكله ولوحه البني ولون

حديده الأخضر، منذ كنت أذهب للمدرسة مع أبي كمستمعة أي تلميذة غير رسمية، ما قبل تسجيلي في المستوى الأول حيث يدرس أبي الذي كان يصمم على تدريسنا حيث يعمل، رغم بعد المسافة بين المدرسة وبيتنا، ورغم خوف أمي علينا من الطريق والشارعين الضخمين- بمدينة الدار البيضاء - اللذان نعبرهما مجبرين للوصول لمدرسة أبي، خصوصا عند العود حيث لا يكون برفقتنا، فبعد العمل يفضل الجلوس في المقهى، مع أن مدرستين ابتدائيتين قاب قوسين من بيتنا.

بقيت في نفس المكان واشتغلت في نفس المكان دون فاصل بينهما باستثناء الزمن! أصبحت شابة لا تتجاوز الإحدى والعشرين ربيعا، امتهنت مهنة التدريس بحب وفرحة لا توصفان، فهو المكان الذي لم أعرف غيره أكثر صلاحا لي للعمل وللحياة. وارتبطت العطلة عندي بالصيف والانطلاق والحرية مع السماء الزرقاء الصافية، أنا المحبة لفصل الصيف، فأنا من مواليد شهر تموز، ولا أحب فصل الشتاء منذ طفولتي، لا أحب البرد والسماء الرمادية، أحب الدفء أكثر والصفاء والوضوح وزرقة السماء، أنتعش صيفا وأكتئب شتاء، كنت أظن أن إعلاني عن كرهي للمطر والعسل كفر، فكنت لا أعلنه للآخرين خشية، لأن الأمطار رحمة من عند الله وخير ورخاء، ولأن عسل النحل مذكور في القرآن وفيه دواء وشفاء للناس.

في يوم امتثلت لإلحاح أمي بأن أتناول ملعقة مملوءة عسلا، كاد أن يغمى علي، وبقيت منبطحة أرضا مدة طويلة لا أقوى على الحركة، قبل أن أستعيد وعيي الكامل وعافيتي بعد ذهاب تأثير العسل. وأستغرب للناس كيف يتلذذون بمذاقه الذي لا يجلب لي إلا الإحساس بالغثيان كلما كان أصيلا وطبيعيا أكثر ومن بطون النحل!

أول يوم عطلة، هو يوم التحرر والاحتفال بعيد مولدي في نهاية كل سنة بمعية زوجي منذ تزوجنا إذا كان حاضرا معي، ويعوضه لي فيما بعد في غير موعده، إذا كان غائبا لأنه بحار يمتهن مهنة ربان بأعالي البحار، هكذا هو مكتوب في بطاقته الشخصية، لم أتعود على الاحتفال بعيد مولدي مع أسرتي التي أحيته لي ربما مرة واحدة في عمري أو مرتين تاركة الفرصة للاحتفال بأعياد ميلاد إخوتي لكل فرد منا سنة، لأننا سبعة إخوة. كانت الأسر المغربية وحتى فترة الستينات والسبعينات تشهد الكثير من الخصوبة والإنجاب، أما ما عداه فلا تنظيم ولا تحديد للنسل إلا لماما. فأخوالي أحد عشر فردا، وكنت أسمع عن إحدى عمات أمي التي أنجبت عشرين فردا عاش منهم من عاش ومات منهم من مات، وبقي الأحياء منهم ستة عشر.

فأغلب النساء لا يعملن خارج بيوتهن في غالب الأحيان، بل يعملن على الإنجاب والإنجاب فقط. سينتفض قاسم أمين بكتاباته التي تدعو المرأة للتحرر، وستتزامن انتفاضته وانفجار ثورة نسائية عربية وثورة المرأة المغربية على غرارها، فأزالت النقاب وغطاء الرأس ومنهن أمي التي عايشت شخصيا بذاكرتي الطفولية فترة إزالتها للنقاب من على وجهها ذي الطابع المغربي الأنيق المطرز التقليدي الأصيل، وهو أسود اللون غالبا شبه شفاف، وأبيض اللون بالنسبة للنساء الشماليات أي اللواتي يقطن شمال المغرب. ليس هو كنقاب اليوم في المغرب الذي تداخلت فيه عدة ثقافات وأصبح خليطا من نقاب أفغانستان ونقاب دول الخليج... الذي انتشر مقابل انقراض النقاب المغربي المطرز الجميل الذي كان يكشف عن جمال عيون النساء المغربيات، وكن لا يجدن أي حرج في الكشف عن ثغورهن أحيانا من أجل الشرب وإعادته بعد ذلك لوضعه السابق الذي يغطي الوجه كاشفا عن جمال كحل عيون النساء وقليلا

من جباههن، وبالإضافة إلى نزع أمي للنقاب، عايشت أيضا فترة إزالتها للوشم من على وجهها بمشقة كبيرة، كان مظهرا من مظاهر زينة الفتيات والنساء حينها. وليس كما هو الشأن في عصرنا حاليا في الألفية الثالثة حيث لم يعد الوشم حكرا على الإناث وحدهن بل حتى على الذكور، ولم يعد حكرا على بعض مناطق الجسد بل يمكنه أن يغطي أغلب مناطقه، بل أصبح الوشم صيحة من صيحات الموضة العالمية.

وبدأت النساء يلجن ميدان العمل ويقلصن من الحمل والإنجاب وجاءت مرحلة تحديد النسل وتنظيمه. الذي لم ألمسه في مدينة طنجة في المنطقة الحضرية حيث أعمل، حين فوجئت من بعض التلاميذ بعد إجراء بعض الإحصائيات أو بعد تبادل أطراف الحديث مع بعض الأمهات إنجابهن لثمانية أفراد أو أكثر، الشيء الذي لم يعد موجودا أو نادر الوجود حتى في نواحي الدار البيضاء حيث كنت أعمل في المناطق القروية ولا أسمع عن النساء هناك تجاوزهن إنجاب أربع أو خمس أطفال على عكس النساء هنا الشماليات.

* * *

لكن بعيد زواجي، تعودت من زوجي احتفاله بعيد مولدي كل سنة، في أول يوم من أيام العطلة، وأن يهاديني بهدية عيد مولدي، بعدها سيشاركه أطفالي هذه العادة، وككل مرة يخفون عني الأمر، وأتظاهر أمامهم بنسياني له وكأنهم يطبخون المفاجأة وراء ظهري لإدخال الفرحة على قلبي.

الفرحة! الحبور! السعادة! هي لحظات نسرقها من الزمن في انتظار ما سيعصفه بنا، وما سيقذفه في وجوهنا وفي قلوبنا وذكرياتنا. فالسعادة هي مجرد لحظات. فدوما أفضل استغلال أية لحظة فرح تتاح لي، وأغتنمها لأنها فارة من بين أصابعنا كالزئبق، كالسراب نركض خلفها، ونقترب منها فتفر من أمامنا وتنفلت.

فدوما استغرب في كل مرة تطفو بعض الأسئلة على السطح وتبدأ في الطرح من جديد كل سنة هل الاحتفال برأس السنة حلال أم حرام سواءِ الميلادية أو الهجرية أو الأماريغية؟ هل تبادل الهدايا بمناسبة عيد الحب "فلانتينو " حلال أم حرام؟ هل الاحتفال بعيد المولد النبوي جائز والفرحة فيه مباحة أم علينا أن نحزن؟ هل الاحتفال بأعياد الميلاد حلال أم مدعاة للحزن على كل عام ضاع من عمرنا في غير مرضاة الله ولم نعمل شيئا للقياه وإرضائه سبحانه؟!

هل.....؟ وهل.....؟ وهل.......؟ كل سنة! كل مناسبة! كل فرح هل؟ وهل؟ وهل؟ كثيرة هي الهلهلات في حياتنا!!! التي تود اغتصاب فرحتنا!!

فلنفرح ولنسعد ولنرقص على أي سبب وأية مناسبة، ما دمنا نستطيع ذلك، ولو بتبادل زهرة أو أية هدية أو حتى بالتذكير بذلك في العالم الافتراضي عبر الشبكة العنكبوتية وعبر الهواتف الذكية أو بتقاسم أكل حلوى أو حتى بابتسامة لطيفة.......سواء في أعيادنا نحن كمسلمين عرب أو أمازيغ أو أعياد العم سام أو حتى أعياد الشياطين! فماهي إلا لحظات وهنيهات سريعا ما ستنقضي.

مر علي صيف 2016 حالكا كما لم أتعود عليه عمري كله، ليقترب كل يوم موعد الموسم الدراسي الجديد، وكلما اقترب هذا الموعد السنوي تعودت أن أشتاق إليه وأن أضيق ذرعا بطول العطلة الصيفية كلما أسود قلبي، وأظلمت الدنيا في عيني، كلما ابتعدت رغبتي في العمل من جديد على غير عادتي، ودون أدنى فهم مني أنا شخصيا، أو فهم ما يلم بي!

سافرنا كالعادة، ككل عطلة صيفية، فزوجي يأخذ فترة مهمة من إجازته أو أغلبها متزامنة مع العطلة الصيفية، لنسافر إلى وجهة جديدة

لم نراها من قبل في سفرياتنا السابقة، داخل بلدنا المغرب الذي يزخر فعلا بتنوع فريد عجيب! واختلاف كبير بين مناطقه، سواء في جوها أو بناياتها أو لباس أهلها التقليدي أو لهجتها، بل هذا التنوع يطال حتى الخضر والفواكه أحيانا بل إلى درجة اختلاف مذاقها بين المناطق، واختلاف جمال الأهالي من منطقة إلى أخرى، ففي بعض المناطق الصحراوية تجد بعض أهاليها ذوي سحنة شديدة السمرة، وغير بعيد عنهم تجد أهالي صحراوية أيضا لكن ذوي بشرة بيضاء وعيون خضر.

هذا ما لاحظته في بعض المناطق كمضيقي تنغير[1] ودادس[2] الرائعين، فبلدنا يزخر بشتى أنواع الاختلافات المنسجمة والمتناغمة جدا.

فقررنا السفر هذه المرة على ألا نتجاوز المنطقة الشمالية التي نقطن بها، فكانت وجهتنا مكانا في اتجاه طريق مدينة الحسيمة إسمه "سطيحات"[3] يتغنى بجماله بعض أهل الشمال، هكذا أسمع عنه ويتخذونه وجهة بحرية شاطئية لهم. ذهبت على مضض، فقد كانت بي رغبة ملحة بداخلي ألا أسافر وألا أتحرك إلى أي مكان. مع حبي الشديد للسفر منذ صغر سني. وأحببت في زوجي كثيرا هذه الخصلة المشتركة بيننا، وهي اغتنام أي فرصة للسفر.

1- تنغير: تعد تنغير من أهم المواقع السياحية في المغرب، ولعل أشهر المواقع الموجودة في هذه المنطقة هناك مضايق تودغى وجبل صفرو وواحة تنغير بنخيلها الشامخ وبحيرة "السمك المقدس" إلى جانب القصبات والدور التي يعود تاريخها الى عام 1630م فقد كانت تنغير في القديم تدعى تودغى وهو تحريف لكلمة "تودرت" التي تعني الحياة، وتنغير واحة كبيرة تمتد حوالي 30 كلم، فاتسع وادي تودغى وأصبح قبلة للسياح.

2- مضيق دادس: هو مضيق ساحر المنظر يقع بمدينة بولمان دادس التابعة لإقليم تنغير منذ 2009، وهي مدينة تقع على بعد 25 كلم من مدينة قلعة مكونة، بين هاتين المدينتية واد دادس، وهي نقطة مثالية للسياح للذهاب إلى وديان دادس وتنغير وجبل صغرو، ومجمل ساكنة بولمان دادس من الأمازيغ ويتحدثون اللغة العربية.

3- سطيحات: أو سطيحة وهي قرية جبلية مغربية بشمال المملكة المغربية، تنتمي سطيحة لإقليم شفشاون، تضم هذه الجماعة القروية 10.637 نسمة حسب إحصاء 2004.

فالسفر عندي هي لحظات انبهار واستمتاع وهيام بالمناطق التي نقصدها، وهي لحظات هروب وراحة مؤقتة ولحظات سعادة عابرة نسرقها من الزمن قبل الأفول إلى الواقع من جديد، والرجوع للروتين اليومي في حياتنا. تمنيت حينها لو يسافر زوجي وأبنائي دوني هذه المرة، وأن يتركوني لوحدي بالبيت، لكن هيهات أن يتحقق لي مثل هذا الحلم بعد أن تزوجت وأنجبت، فلا يمكن أن يتحركوا بدوني، فأحيانا كثيرة أحس أن الزوج والأبناء هم أصفاد جميلة نحبها ونضعها برضانا حول معاصمنا، كرهت ذلك المكان المسمى "سطيحات"، وحاولت أن أفهم سر إعجاب أهل الشمال بهذه المنطقة فلم أجد شيئا يثير الإعجاب، مع اعتقادي الدائم أن أية منطقة جديدة علي، فهي تستحق الاكتشاف ولها ما يميزها عن أي مكان آخر. لا أعرف لماذا كان هو المكان الوحيد الذي لم يسترع فيه انتباهي أي شيء؟ وأي جمال؟ ولم أجد فيه ما يشدني أو يستوقفني أو يحركني، أم هي نفسيتي التي كانت بتلك الدرجة من الهشاشة والبشاعة والسواد الذي يحجب عنها أي جمال وأي مظهر من مظاهر الحياة؟

فقد بدا لي شاطئا صغيرا محدودا فيه الكثير من الحجارة التي تجرح كل من حاول السباحة وليس متمرسا فيها مثلي، وإلا عليك أن تكون سباحا ماهرا حتى تتجاوز كل تلك الحجارة التي تدمي الأقدام وتجرحك ليرتفع جسمك فوق الماء. وهذا يستحيل في حالتي، فلا أحس بالأمان إذا لم تلمس قدماي الأرض بسرعة وأنا داخل الماء، كما أن رماله سوداء دقيقة جدا، وتلتصق بملابسك وجسدك وأرجلك، ولا تزول بسهولة على عكس كل رمال الشواطئ المغربية العديدة التي وضعت فيها قدماي من قبل والتي تنتفض رمالها وتزول بكل بسهولة. منطقة سطيحات هاته تتواجد ما بين منطقة " واد لاو" وبين منطقة اسمها "الجبهة" كنت أقول

لأولادي عنها مازحة "السنطيحة"، فيضحكون، وأقول عن "سطيحات" ما هذه "المريحات" فيضحكون أيضا.

ونحن عائدون من سفرنا عرجنا على مدينة أصيلة[1] معشوقتي الصغيرة، لتناول وجبة سمك شهية عند أحد الطباخين الذي يشهد له الكثيرون بتميزه في مطعمه، يتحرك بسرعة عجيبة بين الزبناء ويتكلم مع الجالسين على كل مائدة ويرحب بهم وكأنهم في بيته، ولا يمكن أن تنهي تناول وجبتك دون أن تراه إلا وقد قام بتبديل ملابسه عدة مرات، وأحيانا يرتدي لباسا غريبا يشبه لباس رعاة البقر الذين كنا نشاهدهم في الأفلام الأمريكية، وبعد انتهائك من الوجبة السمكية اللذيذة، يقدم لك صاحب المطعم تحلية هدية منه، تتضمن الشاي وحلوى مغربية تقليدية أصيلة قديمة. فحركاته وتغييره لملابسه وتعامله المختلف مع الزبائن وأحيانا كثيرة فرضه لما يقدمه لك من طعام بطريقة سلسة وذكية، يخلق تميزه الذي أحاط به نفسه ويجعل مطعمه لا يخلو من الزبائن على خلاف المطاعم الملاصقة لمطعمه، التي لا تعرف نفس الرواج الذي عنده، يشغل معه أحيانا حتى بنتاه الجميلتان والواضح الشبه بينه وبينهما، بل قد يحفز ابنته الصغرى ذات الأربعة عشر ربيعا تقريبا بصوته المجلجل على تنظيف بلاط الزقاق -لأن جزء من المطعم في الهواء الطلق- وكأنه يريد أن يربيها على حب العمل، وكأنه لسان حاله يقول لها: «إنه مطعمكم أنتم أولادي من بعدي، اخدموه ليغدق عليكم خيراته».

1- أصيلة : وهي أيضا أصيلا وأرزيلا وأزيلا وتعني الجمال باللغة الأمازيغية، وهي مدينة مغربية تقع على شاطيء المحيط الأطلسي، تأسست 1500 سنة قبل الميلاد، سكنها الأمازيغ قبل الفينيقيين والقرطاجيين، إلى أن تحولت إلى قلعة رومانية تحمل اسم " زيليس " على بعد (كلم) جنوب مدينة طنجة، وتعتبر هذه المدينة العتيقة لمدينة أصيلا فضاء ساحرا بدروبها الضيقة وجدارياتها المزينة بالرسوم، وبالأسوار المحيطة بها التي يعود تاريخها إلى عهد البرتغاليين.

يومها وبعد عروجنا على هذا المطعم ونحن قادمون إليه من سطيحات.
أتذكر أن قلبي كان يعتصر بين أضلعي، ولا أذكر قول زوجي لي أو ما كان يلومني عنه، الذي أتذكره أنني أحسست وكأن جسمي كله أصبح عبارة عن قلب ينبض بقوة، وأشعر بتضخمه، كنت ممسكة بهاتفي المحمول، وأضغط عليه بقوة، وقاومت نفسي بشدة وقلبي يعتصر بين أضلعي حتى لا أقذف بهاتفي بكل قوة على الجدران، لأخرس زوجي عن الكلام وعن تجريحه لي. لا أريد كلاما، أريد صمتا مطبقا، لا أريد زوجا، لا أريد أبناء، أريد أن أكون وحدي، لا أريد سمك "با ادريس" ولا حتى خدماته المتميزة الذكية. ولا السفر إلى "سطيحات" حيث أمضينا حوالي أسبوع، طال عندي خلاله الإحساس بالوقت مملا مقيتا كما لم يطل عندي الإحساس بالزمن من قبل خصوصا وأنا في سفر.

المستر جيكل... والمستر هايد

وبداية الدخول الدراسي سنة 2017/2016

اقترب الموسم الدراسي أكثر، حتى حل يوم توقيع الدخول المدرسي، فذهبت للتوقيع آخر اليوم، حتى لا ألتقي بأحد ممن يدرسون معي، لأجد نفسي، وقد قررت عدم الذهاب يوم التنظيم التربوي، وهو اليوم الموالي ليوم التوقيع الذي نلتقي فيه جميعا مع مدير المؤسسة والأطر التربوية، ويجرى فيه أول اجتماع لتحديد المستوى الذي سيتم تدريسه من طرف كل أستاذ منا، واستعمال الزمن الذي سنعمل به خلال السنة، وغيرها من الأمور الترتيبية، كأهم يوم تنظيمي لمجموعة من الأمور الدراسية، ليتم الشروع الفعلي بعده في استقبال التلاميذ والدخول المدرسي. مؤكدة دوما على أهمية هذا اليوم لزوجي وعدم غيابي عن حضوره يوما منذ امتهنت مهنة التدريس. وبدون سابق انذار، قلت لزوجي: «لن أذهب ليوم التنظيم التربوي»، فاستغرب لأنني دائما جد حريصة على الحضور خلال هذا اليوم لأهميته، فحاول مناقشتي، إلا أنني صممت على عدم الذهاب، غير مهتمة لا بالمستوى الذي سأدرس ولا بالتوقيت ولا القاعة ولا أي شيء من مثل هاته التفاصيل. فكل ما أذكره أنني أمضيت الليلة بكاملها دون نوم وأنا أبكي، وكأنني أفاجأ بقرارات شخص داخلي لكنه ليس أنا! شخص لا يحترم العمل، شخص لا ينضبط للمواعيد وللواجب المهني ولا يهمه نهائيا ما سيسفر عنه الاجتماع يوم التنظيم التربوي ولا يهمه أي شيء متعلق بالعمل! ولا رأي المرشد التربوي أي مدير المؤسسة، لم يعد كل هذا يحرك أي وازع بداخلي!

ذلك اليوم أحسست بمتلازمة الدكتور جيكل والمستر هايد[1]، متلازمة الخير والشر أو الطبيعي واللاطبيعي أو المقبول والمرفوض أو الخداع والمصالحة مع النفس، فهما شخصيتان في فيلم رعب إنساني أكثر منه سينمائي. وهو فيلم يحكي عن الدكتور جيكل الذي يتربع على قمة الهرم الاجتماعي، وهو العالم الطبيب الهادئ الودود المؤدب والذي يمثل الخير، والذي سيقوم بإجراء عدة اختبارات علمية بخلطه لمواد طبية كيماوية والتي من ثمة سيجربها على نفسه، لتنتج منه شخصا متحولا شريرا قاسيا، غير مؤدب، عنيفا يمثل الشر، ويحقق كل ما يأمره به "الهو" أي الرغبات الدفينة في الإنسان والتي يمارسها دون حسيب أو رقيب من طرف " الأنا " ليحقق كل ما تهفو إليه نفسه، ليعطي لنفسه المتحولة اسما آخر يليق بها هو " مستر هايد".

هكذا أصبحت بدوري في بداية هذه السنة المشهودة، لا أريد الذهاب إلى المدرسة. لكن قبل ذلك بمرحلة ليست باليسيرة، كان الطبيب يعطيني الشهادات الطبية الطويلة المدى فأخبئها في محفظتي ثم أذهب إلى العمل في حالة يرثى لها، يلاحظها زملائي وأراها في عيونهم ونظراتهم، قائلة للطبيب: «إنني أستطيع العمل»، وهو يؤكد لي أنني لا أستطيع ذلك! وأقول في نفسي: «أنا أدرى بجسمي وقدراتي، فبماذا يهرطق هذا الطبيب؟» فأذهب للعمل غير آبهة بكلامه، كنت قد بدأت العلاج النفسي صدفة آخر السنة التي سبقت هاته 2017/2016، بعد أن قذف زوجي في وجهي بهذه النصيحة. وبمجرد بداية السنة الدراسية

1- الدكتور جيكل والمستر هايد: فيلم قصته مأخوذة عن رواية الأديب الإنجليزي الأسكتلندي الشهير روبرت لويس ستيفنسون (ROBERT LOIS STEVENSEN) المولود في تاريخ 13 نونبر 1850، من أشهر أعماله: "جزيرة الكنز" و"المخطوف" و"دكتور جيكل ومستر هايد" التي نشرت لأول مرة في لندن عام 1886، وتتناول الصراع بين الخير والشر داخل الإنسان، يعمل بها علماء النفس لما فيها من نظرة علمية دقيقة لما يدور بداخل النفس البشرية من صراعات.

وجدت نفسي أغير صورة "بروفيل الواتساب" في هاتفي، بصورة أخرى معبرة عن حالتي، وهي لطفلة صغيرة جميلة لكنها عابسة جدا وملامح وجهها تدل على تذمر شديد ومكتوب تحتها "دخول دراسي موفق"، وبقيت هذه الصورة في هاتفي المحمـول مدة طويلة، لم أستطع تغييرها. فقد وجدت المستر هايد Mr Hyde يسيطر علي ولم أعد أقوى على المقاومة، فقد أصبح بداخلي شخص ممسوخ لا هوية له لكنني لست أنا التي أعرف بل هو شخص نقيض لي تماما لا يريد العمل "التدريس" لا يحبه والأدهى والأمر من ذلك أنه "أي التدريس" لا يعني له شيئا، وكأنه لا ينتمي إلى تلك المهنة ولم ينتم إليها يوما. وهذا الاحساس انتابني وبشدة بعد محاولات عديدة مني في التغيير، بغير دراية أو وعي مني عن السبب، أو لماذا؟ حاولت الحصول على أي منصب إداري، وشاركت أيضا في مباراة للحصول على مهمة منظمة ومنشطة مكتبة في مؤسسة "التفتح الفني والأدبي بطنجة"، فقد أصبحت أحس أنني يمكنني امتهان أي دور آخر غير التدريس. لأشرع في البحث عما أقوم به كمهنة غير مهنة[1] التدريس، لأنني لا يمكن أن أقبع في المنزل لا دور لي غير دور ربات البيوت، لم أتعود على أداء هذا الدور وحده في حياتي اليومية.

وأثناء ذهابي لإجراء أول فحص مضاد في المندوبية الصحية بمدينة الرباط بسبب شهاداتي الطبية الكثيرة والطويلة المدى، فكرت في العروج على مدينة الدار البيضاء حيث تقبع شهادة الباكالوريا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بابن امسيك، حينها كنت قد تسجلت بشعبة "الأدب العربي" لأكثر من عشرين سنة مضت، حيث لم أكمل دراستي بعد

1- «المهنة بعد من الأبعاد المتعددة للهوية، والهوية تقبل مكانة خاصة بالنسبة للفرد ذاته، وأيضا داخل البحث النفسي الاجتماعي نظرا لأن الاستخدام يشترط بناء الهويات الاجتماعية ولأنه يعرف تغيرات، فإن الشغل يرغم على تحولات هوياتية خطيرة» حسب الدكتور: عبد الرحيم تمحري، شخصية المدرس المغربي، الهوية والتوافق، تقديم: أحمد أوزي، مطبعة: النجاح الجديدة الدار البيضاء طبعة 2013.

السنة الأولى، وتهت في متاهات الحياة، وبقيت شهادتي قابعة في هذه الكلية دون أن أفكر يوما في سحبها، حتى تقاذفتني السنون لأجد نفسي في مدينة طنجة، عروس الشمال والمدينة العالية كما يتغنى بها أحدهم. مع أنني بمجرد قدومي إليها وقبل حوالي سبع سنين مضت سنة (2010/2009)، اقترح علي أحد زملائي النقابيين أن يسجلني بكلية الحقوق بطنجة فرفضت، لأن القانون لا يستهويني، مع إدراكي الشديد أن من واجب كل شخص دراسة قانون بلده حتى يعرف حقوقه وواجباته وكيفية الدفاع عنها وماله وما عليه. فوجدت أن هذه الظاهرة -الدراسة الجامعية بالنسبة للموظفين- متفشية بكثرة في شمال المغرب على عكس ذلك في مدينة الدار البيضاء، لما يلاقيه الموظف من صعوبات شتى إذا أراد أحدهم متابعة دراسته الجامعية، فأحيانا هذه الصعوبات يلاقيها حتى من طرف بعض الأطر التربوية نفسها كما وقع لي مع مدير المؤسسة التي كنت أعمل بها في مدينة الدار البيضاء الذي رفض أن يمنحني مطبوع الترخيص من أجل متابعة دراستي الجامعية، هاته الأطر التي لا تذلل الصعوبات بل تزيد في تعقيدها وعرقلة الشباب الناشئ الذي يسعى للمعرفة، ولما لا الارتقاء الوظيفي أو من أجل تغيير الإطار، وذلك عن طريق تتمة مساره الدراسي الذي يخنق ويستأصل بمجرد النجاح في أول مباراة من أجل الوظيفة وبعد ضمان راتب شهري قار.

الجامعة...
أساتذتي وشعبة السوسيولوجيا

وبدون سابق إنذار أصبحت طالبة بشعبة "علم الاجتماع" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل، جامعة عبد المالك السعدي. وقد سبق لي قبل حوالي ثلاث سنوات مضت وبعد إلحاح من زميلة لي في العمل أن نعبئ طلبا من أجل متابعة الدراسة الجامعية، فرفضت بحجة: «أننا لن نستطيع أن نجمع وأن نوفق بين العمل والدراسة ورعاية أسرنا وأطفالنا وهم في مراحل حرجة من عمرهم -مراهقتهم- فهم أحوج إلى وجودنا معهم في أي لحظة أكثر من أي وقت مضى»، لكنها ألحت علي في أن نجرب فقط، ونختبر هل وزارة التربية الوطنية والتعليم ستسمح لنا بذلك أم لا؟ أي هل ستسمح لنا بممارسة هذا الحق؟

وأتذكر أنه في استمارة الطلب من المفروض علينا تحديد الشعبة المرغوب في دراستها، فسألتها حينها عن الشعب المتوفرة في كلية الآداب والعلوم الانسانية بمارتيل ومن بين ما قالت: «أن هناك بالإضافة إلى الشعب المألوفة -وسردتها علي- هناك شعبة جديدة وهي شعبة علم الاجتماع». فحددت رغبتي مباشرة وبدون أدنى تردد مني، وكتبت هذه الشعبة نفسها في استمارة الطلب، وجاءنا الرد على طلباتنا من أجل الدراسة الجامعية بالقبول، لكني لم أكلف نفسي عناء المحاولة أو الذهاب للكلية لسببين اثنين، لظني أن مرضي بالسكري سيعوق دراستي لأن نفسيتي لن تتحمل الإرهاق الدراسي أو ترقبي للنقط وما يشوب ذلك من خوف وانتظار وتوتر فصحتي في غنى عنهم، ثم لاحتياج أولادي

لكل وقتي وطاقتي ظانة أنني بدراستي سأنشغل عنهم وسأهملهم، لما تحتاج الدراسة من تفرغ وعناء وقد كنت جد واهمة ومخطئة في ذلك. لم أظن حينها أن المرض سيغير طريقة تفكيري، لم أظن يوما أن حزني الشديد وأن كرهي لعملي وحياتي وبيتي والعالم كله، سيحيي رغبتي في الدراسة، لم أظن أن قراري الحاسم في عدم متابعة دراستي بسبب أسرتي ومرضي سينقلب رأسا على عقب، لم أظن أن المسافة من طنجة إلى مارتيل لن تثنيني عن رغبتي في الدراسة، وكأن قوى خفية أصبحت تدفعني وتحركني، وتحرضني على تحقيق أحلام عمري المؤجلة!

لم يتحمس زوجي كثيرا لذهابي لمارتيل من أجل الدراسة، هو لا يرفضها لكن يفضل أن أدرس بطنجة وأن أكتفي بالشعبة المتاحة بها بالنسبة لي وهي دراسة القانون، هو نفسه عشق دراسة شعبة أصول الدين -رغم تخصصه في العلوم الرياضية- لكن تواجد هذه الشعبة بتطوان منعه من تحقيق رغبته في متابعة دراسته لما يحبذ. وكنت أستغرب لتواجد كل شعب العلوم الإنسانية بمارتيل مع أن مدينة طنجة هي المدينة الدولية، وهي الكبرى، كنت أستنكر ذلك التقسيم الجهوي في دراسة الشعب، قبل أن أحبه وأتشبث به فيما بعد، كأحد المقومات الحاسمة في دراستي وفي علاجي. فبعد أن كنت أبحث دون وعي مني عن أي هروب، حيث أنني مرارا خرجت بدون وجهة محددة. فمرة كانت وجهتي المدرسة، لأغيرها وأرتمي في الشاطئ على الرمال باكية، لا أعلم لماذا؟ باكية كالطفل الصغير الذي حرم من حضن أمه لسنين ليذهب للمدرسة، أكيد هو نفس إحساسي حينها وأنا ذاهبة للمدرسة لعملي "التدريس".

ووجدت نفسي بمارتيل بكلية الآداب والعلوم الانسانية أبحث عن استعمال الزمن، فقد تسجلت متأخرة جدا، لم أنتظر أخذ توصيل تسجيلي

حتى تستكمل الإجراءات الإدارية لأعرف الفوج الذي انتمي إليه - وهذا سيكلفني فيما بعد - لم أكن أعلم أن طلبة شعبة السوسيولوجيا كثر وبأن هناك فوجين في هذه الشعبة، وأن عدد طلابها والراغبين فيها أكثر من ألف طالب وبأن لها مريدين ومحبين وعاشقين مثلي.

وها أنا ذي طالبة في شعبة "علم الاجتماع"، يا لها من صفة جديدة. ياه! عشتها قبل أكثر من عشرين سنة مضت كطالبة في شعبة الأدب العربي بالدار البيضاء، بكلية الآداب والعلوم الانسانية بابن امسيك. وكان أول ما شرعت فيه أنني بحثت عن استعمال الزمن الذي استوقفني كثيرا وأنا أقرأ فحواه ومواد شعبة "علم الاجتماع"، وخصوصا أسماء الأساتذة الذين سيدرسونني، دهشت كثيرا، ما هذا؟ أي زمن أعيش؟ وفي أي فترة زمنية بعثت فيها لأدرس مواد هذه الشعبة في هذه المدينة الشاطئية الصغيرة مارتيل وفي هذه الكلية بالضبط اللتين اخترتهما؟، ما هذه المصادفات الغريبة العجيبة؟ هذا الاندهاش والانبهار وما حللته حينها يدعوني إلى استحضار ما درسته في شعبة "علم الاجتماع" فيما بعد بالفصل الثالث بمادة "سوسيولوجيا الثقافة" والتي من محاورها (الثقافة والهوية)، وعرفت أن الهوية تبدأ بالاسم الشخصي واللقب، وبأن هناك أسماء مرتبطة بالزمن وأيضا هناك أسامي لها مرجعية إحيائية للشرف أو التاريخ، كما أن الهوية هي عنوان الانتماء وهي ما أعرف به ذاتي وأنتظر من الآخرين الاعتراف بها[1]. أو كما يقول مختار الهراس[2]: «الاسم الشخصي يسبقنا إلى الوجود ويستمر بعدنا وهو يكشف عن تداعيات الآخر الذي يختار لنا اسمنا الشخصي، ومن تمة عن نسبية حريتنا الفردية

1- محاضرات الدكتور الزكريتي عبد الرحمان: أستاذ شعبة علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل-تطوان في مادة سوسيولوجيا الثقافة.

2- المختار الهراس: الاسم الشخصي والتسمية واللقب والتفاعل / الجماعة. مجلة إضافات، يناير 1993.

واستقلالنا عن الجماعة الأسرية... ويتميز الاسم الشخصي بثقل الأشياء ويصمد أمام تيارات التحول والتلاشي، ويتعذر أو ترفض ترجمته الى لغات أخرى».

تساءلت عن أي زمن سأحياه بهذه الكلية ومع من؟ فقد قرأت في استعمال الزمن في الفصل الأول بشعبة "علم الاجتماع" أنني سأدرس مادة الفكر الفلسفي عند أستاذ اسمه المعتصم[1]، فدهشت وتساءلت: "أتراني بعثت في العصر العباسي؟؟!"

وامعتصماه! أنجدني، لم أسمع قط في عصر العولمة هذا وطمس الهويات، وزمن التكنولوجيا السريعة هذا اللقب، مع أنني أشتغل بمهنة التدريس لأكثر من عشرين سنة، وأدرس كل سنة أكثر من أربعين تلميذا في كل فوج (أدرس فوجين) ولسنين عديدة، لم أصادف لقبا كهذا أو أي لقب من العصور القديمة التي شهدت ازدهارا عربيا وفكريا وثقافيا كذاك الزمن.

آه، أين نحن الآن من العصر العباسي وما تفتقت عنه بطون وأرحام النساء العربيات من شعراء وأدباء، وما كان خلال ذاك العصر من عطاءات وإبداعات لا زلنا نعيش على أطلالها حتى عصرنا هذا، أترى هذا الأستاذ الجامعي من أحفاد مفكري العصر العباسي؟؟؟ إن الاسم يشكل الهوية، واسم هذا الأستاذ اسم عربي قح منحدر من عهد العباسيين.

بعدها ستقع عيناي على اسم: الغزالي[2]! يا الله، الغزالي وهو من سيدرسني مادة علم النفس، ما هذه المصادفة المبهرة لي، أكيد أنه رجل

1- الدكتور المعتصم الشارف: أستاذ شعبة الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان جامعة عبد الملك السعدي، ورئيس شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، وعضو في مجموعة البحث: الديناميات الاجتماعية وعلاقات السلطة بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

2- الدكتور عادل الغزالي: أستاذ مادة "علم النفس" بشعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، جامعة عبد المالك السعدي.

كبير في السن وقور حامل لنظارة سميكة من كثرة بحوثه وقراءاته، ويضع ربطة عنق، وبطنه بارزة نوعا ما، هكذا تخيلت حتى لا أتخيله يضع عمامة ويحمل كتابا قديما تحت إبطه، ويلبس لباسا عربيا قديما أي لباسا منسدلا، حسب ما يتلاءم وبيئة وجو شبه الجزيرة العربية. إنه الغزالي[1] أحد أعلام عصره، ذو البصمة الواضحة في علوم الفلسفة وعلم الكلام والتصوف والمنطق، رحل إلى بغداد بطلب من نظام الملك، ليدرس في المدرسة النظامية في عهد الدولة العباسية، هو أيضا عاش العصر الذهبي العباسي في أواخره، شتان بين بغداد اليوم وبغداد الأمس، خربت بغداد اليوم وحطمت حضارتها من طرف أمريكا، وأصبحت أرض دجلة والفرات ومهد أولى الحضارات في خبر كان، يوم كانت مدينة شيكاغو الأمريكية لم تر النور بعد بقرون عديدة، يا لمهازل التاريخ!

وفعلا فهؤلاء الأساتذة اسم على مسمى، فلا يمكن للغزالي إلا أن يدرس مادة "علم النفس" المنبثقة من الفلسفة، ولا يمكن للمعتصم إلا أن يدرس مادة "الفكر الفلسفي". بعدها سألحظ اسم الأستاذ الشتوكي مدرس مفاهيم فلسفية، قلت في نفسي: "أكيد هو منحدر من منطقة شتوكة التي تتواجد بمنطقة دكالة"، ربما هو على شاكلة قامات الدكاليين، سيكون طويلا ضخما كما هي قامات أهل دكالة، وهذا اسمه

1- الغزالي: يعد أبو حامد الغزالي (1059-1114) أحد أعلام عصره، كان فقيها متصوفا وفيلسوفا من القرن الخامس الهجري، وهو من المفكرين الاجتماعيين المتميزين الذين ظهروا في أواخر الدولة العباسية، ذو البصمة الواضحة في علوم الفلسفة وعلم التربية، كان مهتما أيضا بالتساؤلات الفكرية والمسائل الدينية واللاهوتية والفقهية والقانونية والأخلاقية. لقد حاول أبو حامد الغزالي من خلال أحاديثه وخطبه ومؤلفاته التي أشهرها "تهافت الفلسفة" "والمنقذ من الضلال" الرد على الأفكار والمبادئ الدخيلة على الإسلام. كما أنه ناقش الأفكار والطروحات الروحية والمجتمعية التي جاء بها بعض مفكري المعتزلة واخضعها لمقياس موضوعي يميز بين الحق والباطل والصحيح والخطأ والحسن والقبيح وهو القرآن والسنة والشريعة الإسلامية، كما درس الغزالي طبيعة العلاقات الاجتماعية التي تربط الحاكم بالرعية والطالب بالمدرس وتربط الأب بالابن وتربط الزوج بزوجته وتربط السيد بالعبد.

مغربي دكالي واضح، ليس كما هو الغزالي والمعتصم فهما معا اسمان عربيان بادية هي هويتهما العربية من اسميهما. بعدها سألاحظ اسم الاستاذ بوطالب وهو مدرس مادة "أسس علم الاجتماع"، لم أكون عليه فكرة واضحة، وكون أن هذا الاسم من الأعلام الفاسية الوازنة في بلدنا، كنت منبهرة خصوصا باسمي المعتصم والغزالي، بعدها ستقع عيني على اسم الزياني مدرس "ميادين علم الاجتماع"، فأدركت بفطنتي وبسرعة ودون أدنى تردد مني أنه من "اولاد زيان"، أحد المناطق القريبة من الدار البيضاء، فأكيد أنه من هناك، حتى أن محطة السفر الكبرى بمدينة الدار البيضاء تحت مسمى " اولاد زيان"، فغالبا سيكون بيضاويا منحدرا من ضاحية أولاد زيان، وهي المنطقة المعروفة بما تزخر به من فلاحة وخير وكرم أهاليها مثل جهة دكالة، كان هذا هو انطباعي عنهم من خلال أسمائهم أي هوياتهم. فالهوية تبدأ بالاسم الشخصي واللقب. وهي ما أعرف به ذاتي وأنتظر من الآخر أن يعترف لي بها. هكذا درسنا في مادة "سوسيولوجيا الثقافة"!

لأدخل أول حصة كانت أمامي ذاك اليوم الغريب عني، وأنا أحس بالخجل لكبر سني ظانة أنني أكبر طالبة بالجامعة، متواجدة في مكان غريب، وكل من حولي غرباء، لا أعرفهم كلهم، أغلبهم صغار السن، فأول تلاميذي الذين درستهم أكبر منهم! وتساءلت: هل سأجلس بجوار هؤلاء الشباب الصغار الذين هم كلهم حماس وحركة وإرادة وقوة؟؟ هل سأستطيع مجاراة اجتهادهم هم الحاصلون على الباكالوريا حديثا؟؟ وقد تكلست بالمقابل معلوماتي وعلاها الغبار، طيلة هاته السنين؟ هل... وهل... وهل... العديد من الهلهلات، التي تطرق رأسي. ودخلت أول حصة وهي مادة الفكر الفلسفي للدكتور المعتصم.

أحاسيس كثيرة خالجتني حينها، الخوف، الفرح، الخجل، الرهبة، التردد... وخاصة الرغبة في أن أخرج من المدرج هاربة إلى طنجة دون أوبة إلى هذه المدينة مارتيل وهذه الكلية، ليدخل أمامنا شاب أنيق ويقول لنا بعد إلقائه للتحية : «سأعود بعد قليل، لأننا نتدارس مواعيد اختباراتكم "للدورة الخريفية"»، خفق قلبي بقوة وخوف من كلمة "اختباراتكم" وأنا برحاب المدرج أول حصة، بعد سكونه لسنين وألمه، هذا القلب الذي لم يخفق من مدة طويلة بهذه الطريقة من مثل هذا الحدث، هذا القلب الحزين الذي لم يعد يعرف إلا التضخم والتصلب والإحساس بالوخز، كأن مقدمة سكين حادة منغرسة فيه، سأعرف هذا نتيجة إحساسي بالألم وببعض التحاليل الطبية، فقد كان بين الحين والآخر يعطيني الطبيب المتخصص في "داء السكري" تحاليل سنوية منها إجراء فحص على قلبي، وفي إحدى الفحوصات كتب لي الطبيب المختص في القلب "رسالة" مغلقة إلى طبيب "داء السكري" والذي بمجرد اطلاعه على فحواها، سألني مستنكرا: «ما بك قلقة إلى هذا الحد؟ ما يؤلمك؟» وسأل زوجي نفس السؤال: «ما بها؟» فاستغربت سؤاله! وكان معي زوجي كعادته، فهو يرافقني أثناء كل فحص عند أي طبيب وعند إجرائي لكل التحاليل لحرصه على ذلك ولخوفي الشديد من الحقنة، بل لرعبي منها. فطبيبي هذا يعرف جيدا مؤازرة زوجي لي لذلك سأله مستغربا. فلم أجد أي جواب في جعبتي لأجيبه به، غير أنني أتأثر بأي خبر مؤلم يمكن أن أشاهده على وسائل التواصل أو أقرأه في جريدة أو أسمعه في بعض برامج الواقع وخصوصا إن تأكدت من صحته، فإنني أسقطه مباشرة على حياتي أو على أولادي، وقد أمضي أسبوعا بعد ذلك أو أكثر متألمة، وبمجرد وضعي لرأسي على وسادتي حتى أبدأ في اجترار واستعراض واستحضار كل تلك الآلام. فنصحني طبيبي بأن أقاطع مشاهدة كل

الأخبار المؤلمة عبر جميع وسائل الاتصال والتواصل، المسموعة منها والمرئية، وإن أردت البحث عن الآلام الواقعية اليومية والحقيقية والمرئية مباشرة، فيكفيني الذهاب للمحكمة والوقوف ببابها حتى أرى شابات صغيرات تجاوزن العشرينات بقليل وهن يمسكن بأطفال صغار، يعانين من مشاكل لا حصر لها مع أزواج يرفضون تطليقهن أو هاربون عن أداء نفقاتهن ونفقات أطفالهن... وأضاف الطبيب: «وهذا كاف لكي تشبعي قلبك مباشرة بمشاكل واقعية حزنا وألما». لكن هذا القلب سيتحرك بشكل آخر وأنا داخل الحرم الجامعي.

خالجت قلبي أحاسيس كثيرة وخفقان على حين غرة حين سماعي من الأستاذ كلمة اختبارات، وما لهذه الكلمة من وقع على النفس، وبمجرد انصراف الأستاذ عن المدرج، ألقيت نظرة على استعمال الزمن، فسألت أحد الطلبة بجواري: «هل هذا الذي يتكلم، هو الأستاذ المعتصم[1]؟»، أجابني الطالب بالإيجاب!

فاستنجدت داخل صدري، وا معتصماه! ما هذا؟ أنجدني يا معتصماه! هل في أول حصة بالنسبة لي ستعلن امتحانات الدورة الخريفية؟! هل سأستطيع استجماع الدروس وفهم ما فاتني من هؤلاء الأساتذة الأجلاء؟! هكذا أراهم، وهكذا أحس وأنا أقف أمامهم، نعم أجلاء! فهم على أعلى قمة في الهرم الاجتماعي يتربعون كما يقول بذلك أفلاطون وكما قسم المجتمع، فمهما تدهور حال التعليم ببلادي، ومهما اختلفت المقاييس عبر الزمن، فأغلب الأساتذة بالنسبة لي: هم أهل فكر، وهم أشرف الناس، وأهمهم في المجتمع، أحب من أحب وكره من كره.

1- الدكتور المعتصم الشارف: أستاذ شعبة الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، مارتيل/ تطوان، ورئيس شعبة الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس. عنوان أطروحته للدكتوراه «مساهمة في دراسة المشروع التاريخاني في الفكر العربي المعاصر» عبد الله العروي نموذجا.

ومهما تكالبت مجموعة من الظروف لهز صورة الأستاذ في مجتمعاتنا، فقيمته تستمد منه شخصيا، ومن مهنته الشريفة التي يشوبها نوع من القدسية والقداسة والشرف والصدق، على عكس ما يعارضها ويخالفها من مجموعة مهن، فمهما ارتقت بصاحبها ماديا ومجتمعيا، ومهما ذرته من أموال طائلة على ممارسيها كالرقص وتجارة المخدرات.... فتبقى مثل هاته المهن إذا اعتبرناها كذلك مع أنها حاضرة في مجتمعنا شئنا ذلك أم أبيناه أو هي ممارسات موصومة بالدناسة وفي خانة التدنيس.

ولا يهمني مهما سمعت عنهم، فهم أساتذتي الذين أحترمهم، وكل ما يهمني منهم هو علمهم ومعرفتهم وما سأستفيد من خبرتهم، ولا تهمني حياتهم الخاصة أو انزلاقاتهم أو انتماءاتهم الدينية أو الحزبية أو ايديولوجياتهم...!!

عاد الأستاذ المعتصم سليل العصر العباسي المنظم في هندامه، والملقي لمحاضراته دون الخروج عن الموضوع ولو للحظة واحدة، فهو ليس كما تخيلته من خلال اسمه / هويته، بل أصغر بكثير من خيالاتي. في حركاته وكلامه يظهر حسه الديناميكي الهائل، وأكيد وواضح أنه كان مجدا خلال دراسته وشديد التنظيم. أو هكذا بدا لي، وبمجرد دخوله للمدرج أخبرنا بمواعيد الاختبارات بعد حوالي أسبوعين فقط!!

وبعد انتهاءِ الحصة، لحقت به مسرعة، والخفقان بقلبي! هل لازال قلبي يعرف الخفقان؟ ياه! من مدة طويلة وقلبي جامد لا يخفق لا يعرف إلا الوخز، وقد تكلست عروقه. ولا يعرف غير الألم. أخذ قلبي يخفق وكأنني تلميذة صغيرة أمام أستاذها، وليس امرأة ناضجة، وربما تقارب أستاذها سنا، وبعد إلقائي التحية عليه، قلت له: «كان لي شرف سماع محاضرتك»، وقبل أن أتمم كلامي، عقب علي بسرعة: «أنا من كان له الشرف بذلك!» وامعتصماه، أنك لا تدري وقع مثل هذا

الكلام على نفسيتي، وعلى قلبي ولا تدرك أنك بهذا الرد طردت عني فكرة الهروب والانسحاب من الكلية وأنك بهذا الرد الجميل تنقذني من براثين الحلكة المظلمة التي أعيشها، كيف يعقل هكذا كلام؟ أي دكتور بجلالة قدره -ولو أنه لازال شابا- يقول لي: «هو من له الشرف أن أحضر لمحاضرته؟» أي تواضع هذا؟ وأي تعامل في قمة النبل، وقمة الأخلاق؟ هي الأخلاق التي أتغنى بها عند غالبية رجال التعليم. وبعد الخوف والوجل والخجل والرهبة والتردد، سيقفز قلبي بين أضلعي فرحا، لأتم سؤالي: «هل يمكنني أن أساير وأفهم وأن أتدارك ما فاتني، ونحن على أبواب الاختبارات، مع أنني لن أفوز إلا بحضور القليل من المحاضرات المتبقية خلال هذا الفصل الأول؟» وبكل ثقة وسرعة أجابني: «أجل، إنك تستطيعين ذلك بالتأكيد...!» لا أذكر بقية الكلام الذي كان كله تشجيعا لي وكله في هذا السياق، لأنني بدأت أحلق بأحلامي هائمة في ملكوت جديد يبزغ منه شعاع بريق قادم نحوي. وفرحت جدا، فلا غرابة ولا عجب، فأكيد هذه هي أخلاق سلف العصر العباسي ورجالات فكره الأجلاء.

بعدها مباشرة وفي الحصة الموالية، أذكر أنني حضرت محاضرة للأستاذ "بوطالب"[(1)]! الشخصية الكارزمية الأكثر شهرة في الكلية بالنسبة لشعبة السوسيولوجيا، أو هو الشخصية الأكثر إثارة للجدل، وهو من بين الأساتذة الذين يدرسون في أغلب الفصول الستة لهذه الشعبة لمدة الثلاث سنوات لنيل الإجازة، يتعاقب فيها على الطلبة بشخصيته الحازمة مع الرعب الذي يخلفه لدى الطلبة خصوصا أيام الاختبارات.

1- الدكتور عبد القادر بوطالب: أستاذ شعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان جامعة عبد المالك السعدي ومنسق مجموعة البحث "الديناميات الاجتماعية وعلاقة السلطة" بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان. عنوان أطروحته للدكتوراه «اللامركزية كهندسة لمجالات التنافس والصراع: السلطة المركزية وآليات إنتاج النخب المحلية» سنة 2002.

لم أكن حينها قد عرفت عنه كل هذا بعد! فبدا لي ذي سحنة تطوانية، ولم أعرف لماذا غيبت في تحليلي هوية اسمه، وكنت لمدة ليست بالهينة -وحسب ملامحه - ظننته تطوانيا، فلون شعره أشقر، وعينيه مائلتين للون الفاتح فلونهما ليس أسودا، مع أنه لا يتكلم بلكنة شمالية حين يتكلم اللهجة الدارجة، فينطق القاف كما ينطقها "أهل الداخل"، هكذا يلقبنا أهل الشمال حين يكون أمامهم من هو ليس جبليا أو ريفيا، لكن في غيابنا نحن غير الشماليين يلقبوننا "العروبية"، ولو كان القادم للشمال من مدينة الدار البيضاء أو الرباط أو فاس.. أو غيرها من المدن المغربية الأكثر تحضرا!

لكن كان مترسخا في ذهني أنه تطواني، لا أعرف لما؟؟، مع أن اسم بوطالب من أعرق الأسماء الفاسية ونواحيها، ويمثل هذا الاسم أكبر رجالات السياسة بالمغرب والفكر أيضا.

ونفس ما حدث لي مع الأستاذ المعتصم، وربما لكوني لازلت لم أسمع تعاليق الطلبة عنه، لم أتردد لحظة فتقدمت اليه، وقلت له نفس ما قلته لمعتصماه (منقدي الأول في الكلية بمارتيل)، ليجيبني بنفس الأدب، وبنفس التواضع: أنني يمكنني المسايرة، رغم ضيق الوقت، وقال لي: ما اعتبرته المفتاح السري في تعاملي مع كل الاختبارات فيما بعد، «أننا نكون طلبة باحثين وليس طلبة يردون لنا ما نلقنهم إياه في المحاضرات».

فأحيانا انطباعاتنا المغلوطة عن الأشخاص وأحكامنا المسبقة عنهم قد تجعلنا مترددين للوهلة الأولى في التعامل معهم، أو قد نمتنع عن التعامل معهم نهائيا!! وهذا يمكنه أن يضيع علينا معرفة الكثير من الناس وخسارة التعامل معهم لمجرد أحكام مسبقة قد لا تمت للحقيقة بصلة وقد تحول دون التواصل معهم والتعرف عليهم عن قرب.

سمعت الدكتور بوطالب يردد مرارا هذا الكلام -أننا نكون طلبة باحثين- مرارا في محاضراته خصوصا في الأيام الاخيرة قبل كل الاختبارات، فاستنتجت من نصيحته هاته، أنه لا يجب أن أكتفي بمحاضرات الأساتذة التي يلقونها علينا، بل يجب البحث في كتب أخرى أو عبر الشبكة العنكبوتية عن إضافات جديدة في كل مادة. ثم استطرد بعد تشجيعه لي، أنه يمكنني الذهاب عنده لمكتبه للاستشارة وطرح كل تساؤلاتي في أي وقت شئت!

يا الله ما هذا النعيم الذي أعيشه، فقد دخلت للكلية بعد عناء طويل من المرض وعدم الرغبة في الخروج من البيت أو محادثة أي شخص، لتبدأ لحظات الانتعاش النفسي عندي بهذه الكلمات من أستاذ جامعي له وزنه.

سأعرف فيما بعد أن هذا الأستاذ بوطالب شخص صارم وحازم، وأن حصته يسودها الصمت المطبق في المدرج، فمن كرر لديه بعض تصرفات الشغب التي تقطع عليه حبل الكلام والتركيز فيما يقول، فإنه يطرده خارج المدرج، ويطرد أيضا كل من سولت له نفسه الدخول لحصته بعد أكثر من نصف ساعة من بداية المحاضرة. يغضب جدا جراء شغب الطلبة أثناء الشرح، وقد يتوقف للحظات وهو متوتر جدا بعد الطرد، وبعد قليل يستعيد هدوءه ليشرع في الشرح من جديد، انه مثلي ويشبهني من هاته الناحية، فأنا كذلك أتوتر بشدة إذا كنت أشرح أحد الدروس، خصوصا النحوية أو التركيبية منها لأنها يجب أن تبنى لدى التلاميذ من الأساس فهي تتكرر باقي السنوات الأخرى وما تبقى من حياتهم الدراسية، وإذا لاحظت خلال ذلك شغب أحد الأطفال المتكرر فإنني أعاقبه وأغضب بشدة قبل أن أستعيد هدوئي وأستأنف من جديد الشرح مرة أخرى.

وقد قدرت كثيرا على عكس الطلبة تدخلاته هاته التي يمرنهم عليها خصوصا في السنة الأولى فبعدها يتعودون على طبعه، والجميع يمتثل لشروطه وإلا سيغادر المدرج مطرودا أمام الجميع، فالمحاضرات عنده هي صلوات يجب احترامها. له عيون ثاقبة كالنسر يلحظ بها البعيد من الطلبة ولو في المدرج مهما كبر ليطرده ومهما امتلأ، كنت أستمتع في حصصه لأنني أسمع كلامه دون مضايقات من الطلبة، فلا أحد يستطيع أن ينبس ببنت شفة أو أن يمسك هاتفه الذكي في حصص الأستاذ بوطالب، فذكاؤه ودهاؤه يفوق ذكاء التكنولوجيا الحديثة التي يستعملها الطلبة في الغش، لأنني سأعرف فيما بعد حضور شخصيته وبقوة في فترة الامتحانات، وأنه من أكثر الأساتذة الغير مرغوب فيهم أثناء الحراسة هو وأستاذ "تمحري"[1]، لأن لهما عين ثاقبة يكشفان بها كل أو أغلب من سولت لهم أنفسهم أن يغشوا في المكان الذي يحرسانه، وكذا الدكتور تمحري الذي يستشعر هو أيضا محاولات الغش بدوره من بداياتها،الى أنه وبكل هدوء يأمر الطالب الغشاش أو الذي حاول الغش أن يغير مكانه إلى الصفوف الأمامية ويجعله صوب عينيه كإنذار أولي وإن لم يمتثل الطالب لذلك يمر الأستاذ لإجراء آخر، وغالبا يفتضح أمر الغشاش مع الأستاذ تمحري، فتجد الطلبة أمامه يحاولون على الأقل حفظ ما بقي من كرامتهم، فينسحبون في هدوء ويمدونه بأوراق التحرير لأنه لن يزحزح ناظريه عنهم، ومهما تفننوا في إبداع وسائل غش حديثة مبتكرة تساير العصر والتقدم التكنولوجي، فهو يكشفهم.

حتى أن إحدى الطالبات لم أرها طيلة فترة الامتحانات، فسألتها عن سر غيابها عن المدرج الذي أجرى فيه أغلبيتنا اختبارات الدورة الأولى، فأجابتني ضاحكة: أنا لن أغامر وأدخل لمدرج يحرس به الأستاذ تمحري

1- الدكتور عبد الرحيم تمحري: أستاذ بشعبة الفلسفة تخصص علم نفس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي مارتيل /تطوان.

والأستاذ بوطالب!، واستطردت: فأنا لست حمقاء! بادئ الأمر لم أفهم! لأنني لم أتخيل بعد مرور حوالي عشرين سنة توقفت فيها عن الدراسة، أن الغش صار وكأنه حق مشروع يستبيحه ويمارسه الطلبة حتى في الحرم الجامعي، بهذه الحدة وهذه الكثافة، وعدم الخجل وهم يذكرون ذلك! أكيد أن الغش لم يخل منه مكان ما أو أي فترة زمنية، لكن على أيامنا كان الأمر مختلفا تماما، فالغش لم تكن له أية مشروعية كما هو الحال الآن عند الطلبة، وكان كل من مسك متلبسا به، كان يخجل وبشدة من نفسه ومن الآخرين، ولا يمكنه إعلان ذلك أمام الملأ، أما الآن فقد أصبح الغش ظاهرة تتكلم عنها مختلف وسائل الإعلام، ومواقع التواصل الاجتماعي التي يمكنها أيضا أن تساهم فيه، وأصبح التفنن والابداع يميزان هذه الظاهرة، كما أنها أصبحت مواكبة للتقدم التكنلوجي، فبعض الطلبة يتكلمون عنه -أي الغش- وكأنه حق مشروط في الدراسة ولابد منه للنجاح في وقتنا الراهن.

حتى أن بعض الطلبة مرة وأثناء النقاش حول هذا الموضوع بالضبط "الغش" في مجموعة كوناها نحن طلبة شعبة علم الاجتماع في "الواتساب"، قال: «أنا مع الغش، وشخصيا أغش، وماذا بعد؟ ففي النهاية سأحصل على "الكرطونة"، يقصد شهادة الإجازة، ولن تغنيني أو تسمنني من جوع، ماذا سأفعل بها، فهي لا تساوي شيئا ولن تخول لي الحصول على عمل!!، فالذين سيحصلون على عمل هم أبناء الطبقة المستريحة التي تتوفر على إمكانيات مادية، فآباؤهم سيوفرون لهم كل شيء حتى العمل، أما عني فسأبقى فقيرا، ابن فقراء!!». لم أعرف ساعتها أن كل ما نسمعه عن الغش قد نخر جامعاتنا أيضا، ومن له بالمرصاد وبقوة فهم أمثال الأستاذ تمحري والأستاذ بوطالب وباقي الأساتذة الآخرين الذين درسوا في ظروف مضت أكيد أنها نقيض ما يعيشونه الآن مع هؤلاء الطلبة.

بدأت نفسيتي تنتعش شيئا فشيئا بعد الموت النفسي واحتراقي المهني. فتشجيع الأساتذة هذا لي لن أنساه ما حييت خصوصا مع ظروفي الصحية تلك التي كنت أعاني منها في بداية دخولي للكلية وخوفي من ملاقاة الناس أو التحدث معهم ورفضي لأي نوع من المعاملة مع الآخر. عدت يومها للبيت، فعلقت ابنتي بمجرد رؤيتها لي: «من مدة طويلة أمي لم نر هذه الابتسامة على ثغرك، وهذا البريق في عينيك!». طبعا، فهي لا تعلم أن داخلي يرقص ويغني ويقفز كطفلة صغيرة.

يقول الدكتور تمحري: «سيكون من التبسيطية الاعتقاد بأن كل الذين اختاروا مهنة التدريس إنما فعلوا ذلك تحت تأثير أساتذتهم، ونتيجة لتوحدهم معهم ولإعجابهم بهم». شخصيا أنا من هذه الفئة، يعني أنني أستاذة تعليم ابتدائي أو أساسي وفي نفس الوقت معجبة جدا بأساتذتي.

لاحظت أنهم أي أساتذتي في "شعبة السوسيولوجيا" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية على عكس ما تصورته في تخيلاتي قبل أن أراهم، أي عبارة عن دكاترة كبار في السن، بنظارات سميكة وبطونهم منتفخة أمامهم، إنهم على العكس تماما، فأغلبهم شباب، والأشد غرابة أنهم كلهم وبدون استثناء لا بطون بارزة لديهم، فهم أهل فكر ومعرفة وليسوا رجالات سياسة كما هو متعارف عليهم عندنا يتميزون بالبطون البارزة، وحتى من كان أول عهده بالسياسة بدون بطن، فإنها تبرز لديه بعد ممارستها، تساءلت عن السر في ذلك؟ هل كلهم -أساتذتي- مواظبون على ممارسة الرياضة؟ غالبا لا! فربما هو نوع الطعام! ونوعية التغذية الصحية التي يتغذى بها الناس في شمال المغرب، التي يعتمدون فيها على الأسماك وخشاش الأرض من أنواع البقوليات ثم القطنيات، وأطعمة تحتوي على كثير من الألياف والأجبان اللذيذة والألبان على نقيضها في أغلب مدن المغرب (الداخل خصوصا) التي يعتمد أهاليها

على كثرة اللحوم الحمراء وما لذ وطاب من الأطعمة الى درجة التبذير المبرر بالكرم الحاتمي، المميز لأهل الداخل أي كل من هو خارج عن الدائرة الشمالية.

بعدها سيدخل إحدى الحصص أستاذ شاب أيضا، يتكلم بلكنة تونسية، ظننته لمدة لا بأس بها أنه تونسي، وعاش طويلا بالمغرب، فتحولت لهجته الى مغربية منقحة باللهجة التونسية، إنه الدكتور الزياني عبد الغني[1]، من ظننته للوهلة الأولى من خلال هوية اسمه أنه بيضاوي، يتكلم بسرعة والكلمات تتلاحق بسرعة وهو ينطقها، فبعد أن درست عنده لمست الكم الهائل من المعلومات لديه، فما يمكن أن يقال في مدة زمنية معينة من الكلام، فمع الأستاذ الزياني تسمع الضعف، كنت أتساءل في حصصه: كم يمكن أن يكون قد قرأ من كتاب؟

يخيل لي وأنا أمام الأستاذ الزياني[2] أنه التهم قراءة الكثير من كتب الدنيا، ومن خلال كلامه وبعض إشاراته فهمت أنه درس بعدة دول عربية منها مصر وتونس، يشير أحيانا للجزائر. كم تمنيت لو استطعت أن أسأله عن مساره الدراسي وعن كيفية دراسته في هذه الدول؟ لكني كنت أخجل وحتى لا يساء فهمي من أني أريد كبعض الطلبة التقرب من الأساتذة من أجل نيل الحظوة لديهم بمحاباتي ببعض النقط أو غيره. هو يحب الطلبة ويعطف عليهم أحس بذلك وألمسه في كلامه، يتكلم لنا بحنين عن الفترة التي قضاها وهو طفل صغير بالداخلية. أكيد أنه جرب

1- د. عبد الغني الزياني: أستاذ شعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، من مؤلفاته: "سوسيولوجيا المقاولة بالمغرب، مدخل إلى منجز لحبيب المعمري"، مقاربات من تقديم أحمد شراك، منشورات دار ما بعد الحداثة الطبعة 2015.

"التراب المجتمع التنمية المستدامة " عمل مشترك من الندوة الدولية التي نظمها القطب أيام 7/8/9 دجنبر 2016، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال – فاس، تنسيق لحبيب المعمري وعبد الكريم القنبعي، منشورات القطب، 2017.

2- د. الزياني، نفسه.

كل ألوان المعاناة والاغتراب خلال مساره الدراسي قبل ان يصبح أستاذا جامعيا، لكنني على يقين أن مثل هؤلاء هم من يصلون لأعلى المراتب وليس أصحاب الياقات البيضاء؛ هو ماركسي حتى النخاع، واضح ذلك أثناء كلامه خاصة حين درسنا مادة "سوسيولوجيا الأديان"، لباسه فيه تناسق في الألوان غالبا يكون رماديا أو بنيا ذي طابع كلاسيكي. حياته الطلابية لا تغيب عنه، حين تسنح الفرصة له يستحضرها كأنها الأمس القريب، فيتكلم لنا عنها قليلا حسب علاقتها بالموضوع. ومن خلال بعض الإشارات منه عرفنا أنه من شرق المغرب ربما من وجدة أو نواحيها، وأن لا علاقة له بأولاد زيان أو بالدار البيضاء ونواحيها كما تخيلت أو توقعت من اسمه / هويته، وغالبا يربط لنا مثل هذا الحديث بما يدرسنا إياه أي أنه لا يخرج عن سياق محاضراته إلا لوقت قليل. مرة ذهبت عنده لمكتبه ليوقع لي على أحد كتبه فكان توقيعا ذي كلمات جميلة فحواها كالآتي «إلى التي لو تجسدت في شخصيتها الروح الطيبة والمودة والإيثار والفخر لكان اسمها ماجدة، مع متمنياتي لك بالتوفيق»، الكلمات الجميلة لها وقع السحر على نفوسنا أو هي كضماد وبلسم يريحنا حين نسمعها أو نقرأها مهما كانت مجاملة أو تم نسيانها في اللحظة نفسها حتى من طرف كاتبها أو قائلها، كانت هذه كلماته لي على كتابه "سوسيولوجيا المقاولة بالمغرب" مدخل إلى منجز لحبيب المعمري[1] ذي الثمن الزهيد، كأغلب كتب الأساتذة في شعبة

1- د. لحبيب المعمري: أستاذ في علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز- فاس، ويعد من أهم الباحثين انشغالا بتطوير البحث السوسيولوجي بالمغرب حيث يرى أن تطور البحث السوسيولوجي رهين بالانتقال من العمل الفردي إلى العمل الجماعي، ولهذا كان من المساهمين في تأسيس مختبر الأبحاث والدراسات النفسية الاجتماعية بفاس، وهو المختبر الذي أنجز مجموعة من الدراسات والأبحاث في قضايا متنوعة، كما أن له عدة مؤلفات منها: المقاولة والثقافة: دراسة في عملية التحديث بالمغرب، الجزء I والجزء II، ثم التنظيم في النظرية السوسيولوجية والتغير الاجتماعي ورهانات العولمة. حاصل على دكتوراه الدولة في موضوع «المقاولة والثقافة».

السوسيولوجيا الزهيدة الثمن والتي لا ترهق ميزانية الطلبة بل الأكثر من ذلك أنه غير مفروض علينا شراؤها عكس ما نسمع عن كلية الحقوق وابتزاز الأساتذة للطلبة بشتى السبل لشراء كتبهم المرتفعة الثمن والتي يضاعف ثمنها كتب أساتذتنا عدة أضعاف، بل إنهم على العكس من ذلك يؤكدون علينا أن شراءها ليس ضروريا.

ثم سيدخل للمدرج الأستاذ الشتوكي[1] الدكالي الأصل حسب ظني من هوية اسمه وهو مدرس مادة "مفاهيم فلسفية" لألحظ من كلامه بالطريقة الشمالية التي تخرج بسلاسة من فيه بأن لا علاقة له لا من قريب ولا من بعيد بدكالة أو "بالعروبية"، بل لكنته شمالية بامتياز، مع نطقه لحرف الراء مثل أهل فاس. هو أيضا لازال شابا، حضرت لمحاضراته مرتين أو ثلاثا متأسفة على ذلك، فهو الأستاذ الذي يتكلم بسخرية سوداء، يخلط كلامه الجدي بالهزل دون ابتسامة منه، حتى أنك وأنت أمامه لا تعرف الحدود الفاصلة بينهما وأنت تستمع إليه، سألته على ماذا سنعتمد في مادته، أجابني ومجموعة من الطلبة: اقرأوا فقط على بارمينيدس[2] أو بارمينيدي الفيلسوف الشاعر الذي عاش قبل القرن الخامس الميلادي. فأول مرة بحياتي أعرف أنه كان هناك شعراء فلاسفة قبل الميلاد.

1- د. الشتوكي محمد طه: أستاذ بشعبة الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، مارتيل / تطوان جامعة عبد المالك السعدي. أطروحته للدكتوراه: "الهندسة التطبيقية في الغرب الإسلامي. من خلال نموذج ابن خلف المرادي" من مؤلفاته: " فن النظر وأصل العين " وتحقيق بعنوان "مجهولات قسي الكرة لمعاد الحياني ".

2- بارمينيدس: فيلسوف يوناني ولد في القرن الخامس قبل الميلاد في إيليا، ولقد وضع بارمينيدس فلسفته شعرا مقابل فلاسفة مدرسة أيونيا الذين وضعوا فلسفتهم نثرا، وحذا حذوه مجموعة من الفلاسفة الذين أتوا من بعده، وضع بارمينيدس فلسفته في كتاب دعاه «الطبيعة» الذي قسمه إلى قسمين: الأول في الحقيقة «الوجود الحقيقي» والثاني في الظن «الوجود المحسوس، يبدأ بارمينيزس قصيدته التي سيبحث فيها عن الوجود الحقيقي والوجود غير الحقيقي متحدثا مع الآلهة بنات الشمس (هيليوس).

فالحصص التي حضرتها عند الأستاذ الشتوكي كان يحلق بنا خلالها إلى عالم الشعر والشعراء الفلاسفة ويتكلم لنا عن تلاحم روح الشاعر مع الآلهة!!؟ ما هذا... ما كل هذه الروعة؟ لم أسمع من قبل أن هناك فلسفة شعرية، كان يهيم بنا في قرون ما قبل الميلاد! وكان أول ما حفظت من هذا الشاعر الإغريقي رغم ذاكرتي الضعيفة، بيتا شعريا قاله بارمينيديس:

هزتني الجياد تحملني * * إلى أقصى ما يهفو إليه قلبي

إنه أستاذي الساخر / الجدي والذي لا يمكنك الفصل بين جديته وسخريته المتمازجتين بشكل غريب ومنسجم في نفس الآن، والذي أمدني بدفعة قوة في أول اختبار لي في الدورة الخريفية بالفصل الأول دون أن يدري، حين كنت من بين الطلبة المتأخرين في مده بورقة التحرير مذكرا إيانا على أن لا يتجاوز جوابنا على مادته ورقة ونصف، لأن العادة جرت في كليتنا أن أساتذة كل مادة هم من يحرسون الطلبة الذين يدرسونهم على عكس الحراسة في التعليم الأساسي الذي لا يحرس فيه بتاتا مدرسوا المستوى السادس مثلا كمستوى إشهادي.

ودون أن يدري الدكتور الشتوكي ما فعلت بي ملاحظاته وكلماته التي أشكره عليها جزيل الشكر وممتنة له أيما امتنان حين سلمته ورقتي التي ألقى عليها نظرة سريعة على بعض الأسطر التي كتبت في المقدمة، ليقول لي: «إن مثل هذه الإجابات هي التي تثلج صدورنا نحن كأساتذة أثناء التصحيح وتنسينا رداءة بعض الأجوبة». لم أنبس بكلمة وابتسمت فقط وخرجت محلقة من المدرج الذي سيصبح فيما بعد تحت مسمى ابن الخطيب، نفسيتي هي المحلقة فقد أدركت بتقويمه السريع والآني لبعض أسطر إجابتي أنني على الطريق السليم وأن جوابي في مادة الفلسفة من سطوره الأولى ينم على أن ما بالورقة سليم، مع أني نويت قبل كلام

أستاذي الشتوكي أن أركز على بعض المواد وان أترك الأخرى حتى الدورة الإستدراكية لضيق الوقت. ذاك اليوم كان هو أول يوم اختبار لي في الدورة الخريفية به مادتان ولازالت أربع مواد أخرى، مع فرق بين الاختبار والذي يليه يومين فارغين، بعد كلمات الأستاذ الشتوكي وتحفيزه لي الغير مقصود قررت تلك الليلة بكل حماس أن أراجع بقية المواد المتبقية وكلي ثقة في النفس، تلك الثقة التي ضاعت مني في مهنتي "التدريس" بل ضعت ككل، وأصبحت لا أكره مهنتي فقط بل أكره كل حياتي.

حرسني الأستاذ طه الشتوكي أيضا خلال الدورة الربيعية فيما بعد فشكرته لأنه منحني نقطتي المستحقة دون أن يؤاخذني على تغييري الغير متعمد للفوج في الدورة الخريفية، الذي سأشرح دافعي لهذا الكلام فيما بعد، لم يفهم قصدي أول الأمر ونسيني وقال لي: «ما دمت منحتك نقطة ما فتأكدي أنها نقطتك التي تستحقينها»، فاعتذرت منه لأننا نضفي عليهم همنا إضافة إلى الطلبة الجدد فأجابني بكل تواضع وأدب: «بالعكس إن تواجدكم مع الطلبة -يقصد صغار السن- يريحنا كثيرا ويمدنا بالنفس للتدريس وتجاوز الرداءة والتراجع الذي نعيشه بعد كل عقد من الزمن ونحن بهذه المهنة، فبمعيتكم نستطيع أن نجر القافلة للسير قدما فأنتم من تساعدوننا وترفعون من مستوى هذا الانحطاط».

وبعد كل ذلك الكم من الكره لحياتي سأحبها من جديد في الكلية بمارتيل عن طريق الدكاترة الأساتذة الأجلاء الذين درسوني، إنه الانعتاق إنه التحرر من السجن النفسي. حتى أني فكرت وتساءلت لماذا لم أتسجل في شعبة الفلسفة عشقي الأول والقديم والذي لو لم أعمل بمهنة التدريس حينها لكنت تسجلت في كلية بها شعبة الفلسفة، ووقتها كانت متوفرة بمدينة الرباط فقط، وكان مرجع تساؤلاتي سببه الرئيس هو

ذلك التعامل المهذب من طرف معتصماه الدكتور المعتصم والدكتور الشتوكي وبعدهما الدكتور تمحري الذي سأجد عنده محفظتي السوداء التي ضاعت مني أو بالأصح نسيتها بطبعي وكعادتي في نسيان أمور كثيرة في حياتي منذ طفولتي، كان ذاك يوم اختبار مادة علم النفس، فقبل أن أستردها منه كنت قد سجلت بدفتري موضوع بحثي بعد اقتراحه علي من طرف أستاذي تمحري الذي وضع يده بالضبط على ما أريده وهو البحث في الموضوع الذي جئت من أجله الى هذه الكلية والذي هو دافعي الأول للهروب،فاقترح علي عنوان "المؤثرات السايكوسوسيولوجية على مدرسي التعليم الابتدائي" بعد أن سألني من أكون؟ ولماذا أتواجد بالكلية؟ قبل أن يمدني بمحفظتي السوداء التي نسيتها في المدرج الذي كان يحرسه بعد اختبار مادة "تيارات علم النفس" وقبل عودتنا بعد الاستراحة لامتحان "مدخل الى علم النفس"، فشرحت له سبب إقبالي على الدراسة في الأساس باقتضاب شديد، لم أكن حينها أعلم مع من أتحدث فسألته عن اسمه في نهاية حوارنا، وخجلت جدا من نفسي لسؤالي ذاك، بعد أن علمت أنني أحظى بالوقوف أمام أستاذ مثله، فقد سبق لي وسمعت عنه الكثير من بعض الطالبات منذ حللت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بل كانت عندي بعض كتبه في بيتي التي اقتنيتها استعدادا لاختبارات مادة علم النفس.

كنت أسمع عن تمرسه في تدريس مادة علم النفس ولم أعرفه مباشرة إلا ذاك اليوم المشهود. فكان صدفة لقاؤنا سببه آفة النسيان عندي، فالنسيان جزأ مهم من تركيبتي منذ طفولتي، والكثير من الغرائب والمواقف عشتها بسبب نسياني العجيب، فلا أعلم أين كان يحلق بي تفكيري وأنا طفلة صغيرة وماهي انشغالاتي حينها؟ فقد كان من النادر أن أحضر ما طلب مني شراؤه أو عمله، كان إذا طلب مني إحضار شيء ما

فمن النادر أن أحضره، فلا علاقة بين ذهني وعيني ويدي، كان الاتصال بينهم شبه منقطع، فقد كان إذا طلب مني وضع الملح أو الزيت في المطبخ مثلا فإنهم يجدانهما في المبرد، كانت إحدى أخواتي تتساءل مستغربة حين تفاجأ بهما في غير مكانهما: هل أخاف عليهما من الدود أو أن يفسدا بوضعي لهما في مكان بارد؟

فمرة لم يجد كل أفراد أسرتي أحذيتهم، فمن كان يلبس ذاك اليوم حذاء ووضعه من قدمه وأراد أن يخرج بعد ذلك لم يجد له طريقا، فقلبوا الدنيا وهم يبحثون عنها، في نهاية المطاف قالت لهم أمي ابحثوا في القمامة، فماجدة هي من قامت بكنس الأرض وتنظيفها، ولا أستغرب أنها قذفت بكل أحذيتكم مع ما جمعته في القمامة، وفعلا كل وجد حذاءه فيها. هي الأم طبعا وهي الأدرى بفلذات أكبادها والتي لا يمكن أن تتوه عنهم، كانت تقول لي بعد زواجي وإنجابي: «يمكنك أن تنسي العالم بأسره لكن إياك ثم إياك أن تنسي أحد أطفالك في مكان ما أو تنسي أنك أنجبت أصلا وصرت أما؟؟؟».

أعطتني أمي مرة قدرا من المال عبارة عن بعض الملايين -بالضبط ثلاثة- لأحملها في محفظة يدي لرغبتها في شراء شقة وفرقتها بيني وبينها وإحدى صديقاتي خوفا من حملها كل المبلغ في مدينة الدار البيضاء التي تعودنا بعيشنا فيها على الرعب، وفي انتظار القيام بالإجراءات في مكاتب البيع التي كان يتواجد بها العديد من الناس غيرنا، ما كان مني إلا أن هرولت خلف ابنتي الكثيرة الحركة، ووضعت حقيبة يدي التي يوجد بها كل المبلغ أرضا متناسية لها ولما فيها من أمانة، وبعد أن عدت وجلست معهم تناسيت تماما أمر حقيبة يدي وما بها من أموال بعد أن خبأتها أمي عندها ولزمت الصمت متكتمة عن ذلك تنتظر أي رد فعل مني، وبعد عدم تحريكي لأي ساكن مني بدأت تتحسر وتقول أنا هي

الناقصة عقل التي أعتمد على المعتوهين! لكني لم أتساءل ولم أفهم ما بها! لكن بعد أن عرفت الحقيقة المرة انفجرت ضحكا كما هي عادتي حين تقع لي مثل هاته الطرائف وغيرها كثير.

أبي كان يقول لي ضاحكا جراء الغرائب التي كنت أقترفها: «هنيئا لك بنعمة النسيان هاته التي أنعم الله بها عليك». لم يفهم زوجي ولم يستوعب كيف يمكنني نسيان إحدى مواد اختبارات الفصل الثاني وأنا أدرس بالكلية وجئت مستعدة لمادة أخرى بالخطأ في غير اليوم المخصص لها وبسبب هذا النسيان أعدت اختبار مادة "سوسيولوجيا التنظيمات" في الفصل الثاني في الدورة الاستدراكية والتي ظننتها ستجرى يوم اختبار مادة "المؤسسات الاجتماعية".

ومضات من حياتي

يوم من أيام مارس 2018، أظن يوم الثامن عشر منه، يوم مر علي عصيبا أغلبه، لأن زوجي تركني قبل ذهابه للعمل وبي مغص خفيف لأنني حامل في سني الذي تجاوز الأربعين ومريضة بداء السكري ذاك القاتل الصامت، لم أدر متى وأين وكيف حبلت وبشكل مفاجئ؟؟

فقد أجريت الاختبار الأولي المنزلي ليعطيني النتيجة إيجابا، مع أنني وزوجي نحتاط بشتى الأساليب حتى لا أحبل بعد إصابتي بمرض السكري، لم أصدق عيني ولم أصدق فهمي للكلمات "الحمل إيجابي" المكتوبة باللغة الفرنسية، لم أصدق تواجد الخطوط الحمراء القانية التي يزداد لونها وضوحا بمرور الدقائق، فخرجت من الحمام ووضعت أمامه أنبوب الاختبار الأبيض بعلاماته الحمراء ليكتشف مثلي أنني حامل. فزوجي غالبا هو الذي يلح دائما عند غياب دورتي الشهرية أن أقوم بمثل هذا النوع من الاختبارات، وهو الواثق وبشدة في قدرتي المستمرة على الإخصاب على عكسي أنا التي كنت أظن بل مقتنعة إلى حد كبير أن غياب الطمث في سني هذا هو بداية الإعلان عن سن اليأس كما يسمونه أو سن الأمل كما يحلو لبعضهم تسميته أو سن انتهاء الخصوبة والإعلان عن توقف الدورة الشهرية، وعلى أن الرحم أصبح كالأرض الجرداء المتشققة الجافة التي لا نبات ولا ماء ولا طير يقترب منها، وقال لي كرد فعل أولي: «أن هذا ما كنت تريدينه، ارتحت الآن؟». أعدت ترديد كلماته واجمة شاردة، هذا ما كنت أريده؟ ارتحت الآن؟ وأسرعت إلى قاعة الاستقبال ذاهلة.

فقد كنت أريد الحمل منذ عشر سنين مضت أو أكثر وليس الآن، إنني في سني هذا مريضة بالسكري وابنتي البكر في قسم البكالوريا وابني الصغير سنه تجاوز الإثنا عشر سنة، هل من الممكن أن أصبح حبلى في مثل هاته السن؟ الأفكار تتصارع في ذهني، كل فكرة تفر هاربة لتلحق بها الأخرى أسرع وأقوى وألعن. تبعني زوجي وابنتي التي سمعت الحدث. وجلس بعدها زوجي مبتسما ببراءة كالطفل الصغير، ربما مزهوا بفحولته، أو تدغدغه فكرة أنه سيصبح لدينا طفل صغير أو... أو... لا يهمني، بل أنا في ذلك الزلزال أو الإعصار الذي ألم بي في ذهني، كيف أحبل وقد سقطت سقطة قوية في الدرج عند أمي صدفة قبل شهر، حتى ارتج دماغي مع الجدار وكاد يتهشم وكدت أن أكسر من عدة أماكن لولا لطف الله؟ كيف أحبل وقد تناولت مضادات حيوية وأدوية كثيرة بعد نزلة برد قاسية ألمت بي؟ كيف أحبل وأنا أتناول عقاقير عن مرض السكري؟ وهي ممنوعة في حالة الحمل وتصبح الحقنة معه إجبارية؟ الحقنة التي تخيفني وعندي منها رعب الى درجة الفوبيا، ولأجل الحقنة ألغيت فكرة الحمل نهائيا من دماغي مدة عشر سنين مضت وهي الفترة التي أصبت فيها بمرض السكري منذ انتقلت إلى مدينة طنجة؟ كيف أحبل وأنا أتابع دراستي الجامعية؟ كيف سأذهب للكلية وبطني منتفخة أمامي وأمام أنظار الأساتذة؟ وأمام الطلبة الشباب وهم بعمر أولادي؟ كيف سأتم دراستي وقد أصبح عندي حلم بمتابعة دراستي حتى آخر رمق؟ وأحلم أن أطبع بحث إجازتي في كتاب؟

كيف سأسترجع طرق التعامل مع طفل صغير جدا؟ كيف... وكيف؟ هذا هو الإحساس الذي كان يعتريني حين تغيب عني دورتي الشهرية، هذا ما فهمته منذ صبايا، بعد الأربعين قد تظهر علامات سن اليأس، رغم ضمور صدري ورغم بعض علامات الحمل فإنني

لم أستحضر في ذهني نهائيا أنني حبلى أكثر من أني اقتربت من ذلك السن اليائس!

ذهبت اليوم الموالي لإجراء تحاليل الدم للتأكد أو تكذيب جهاز الاختبار الأولي المنزلي، فثبت أنني حامل ما بين الأسبوع السابع والثامن وهرمونات الحمل عندي مرتفعة أرقامها جدا، ومباشرة حملنا تقرير التحاليل الطبية أنا وزوجي إلى الطبيبة التي أكدت الحمل عبر جهاز الأشعة بالصدى، وأرادت أن تتأكد من دقات قلب الجنين عبر الجهاز المهبلي فرفضت لأن لي ذكريات أكرهها مع هذا الجهاز حين أجهضت قبل ثلاث سنوات مضت، ألحت علي لكنني صممت على الرفض، وأمام رفضي أعطتني موعدا بعد أسبوعين، لم أستطع الصبر ذهبت عند أكثر من طبيبة.

فعند الطبيبة الثانية وهي تخصص طب عام قالت: أنني حامل في شهر ونصف ونصحتني بالذهاب عند اختصاصية في أمراض النساء. فهل لاحظت شيئا سيخيفني أو لم تستطع التشخيص؟ هل لاحظت عدم وجود دقات القلب؟ أم لاحظت علامات وجود طفل مشوه بسبب كبر سني أو عدم وجود الجنين أو أكلت القطة لسانها؟ أم هل فقط لإجراء الاختبار المهبلي كما قالت والتي لا تملك جهازه في عيادتها؟

ثم ذهبت عند الطبيبة الثالثة لتقول لي: بكل سرعة وببساطة أنني حامل لكن بدون جنين، كيف؟ وبنفس الإعصار الذي تلقيت به نبأ كوني حبلى، بعد إجراء تحاليل دمي وتأكيد الطبيبة أن في رحمي جنين ذي السبع أسابيع فما فوق، بنفس الهزة والارتجاج والصدمة تلقيت خبر أنني حامل لكن بدون جنين، استفهمت الطبيبة كيف؟ قالت لي: يوجد حمل لكن كالبيضة الفارغة!؟ قلت: إذن هي بيضة فاسدة!؟ قالت لي: بل فارغة!!؟.

لم أستوعب شيئا، فالعديد من الدكاترة في بلادي وأقصد الأطباء، يعاملون المرضى وكأنهم درسوا معهم في نفس كلية الطب، فمن المفروض أن يفهم المريض وبكل سرعة حالته وكأنه درسها لسنين أو لا يفهم، فليس مهما عند الطبيب فهم أم لا! المهم ان يخرج ويدفع ليحتل مكانه مريض آخر. وبلغة الطب قالت لي ما يسمى Sac mode!؟

لم أستوعب شيئا من هذه الطبيبة صاحبة التشخيص والتي هي من تكلفها "تعاضدية التعليم" بالكشف على جميع نساء رجال التعليم والنساء الموظفات بهذا القطاع أيضا، وتوليدهن في جميع الحالات سواء في حالة الولادات الطبيعية أو الولادات القيصرية الحرجة أو الولادات المتعسرة، ولحسن حظي أو ربما لأنني من الفئات الشبه محظوظة نسبيا كما يقول بذلك الدكتور تمحري في كتابه "سوسيولوجيا التربية"[1] فقد استطعت أن أكرر الفحص عند أكثر من طبيبة في ظرف أسبوع أو اثنين وأن أدفع لهن ثمن الفحص الطبي الباهض! حتى بالنسبة للطبيبة صاحبة خبر حمل بكيس فارغ والتي تحملها المسؤولية "وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني والتعليم العالي والبحث العلمي" لتوليد النساء وإخراج عدد كبير من النشئ المغربي من أرحام المنتمين لقطاع التربية والتعليم في الشمال خصوصا والمسؤولة هي عنها، فقد استدرجتني لعيادتها الخاصة لأدفع ثمن الكشف الطبي المرتفع مقابل الكشف بمصحة تعاضدية التعليم بطنجة بدعوى أن الأجهزة هناك قديمة ومتهالكة جدا ولا توضح أي شيء بعد أن كشفت علي بها، وحتى العاملين بمصحة تعاضدية التعليم يبذلون قصارى جهدهم وبكل وسائل الإشهار والدعاية لدفع المنخرطات لتتبع حالاتهن عند الطبيبة في عيادتها الخاصة بدل دفع الثمن الرمزي سبعون درهما المحدد في تعاضدية التعليم كخدمات

1- د. عبد الرحيم تمحري: سوسيولوجيا التربية والتنشئة الاجتماعية. طباعة Rive Imprimerie، سنة 2018.

توفرها الدولة بعد الاقتطاعات الشهرية لنساء ورجال التعليم العاملين بهذا القطاع.

تلك الليلة وعند سماعي لهذا الخبر لم أبتعد عن الشبكة العنكبوتية لمعرفة كل الحيثيات الممكنة عن هذه الحالة "حمل بكيس فارغ" أو (Sac mode)، ويا ليتها أي الطبيبة المختصة في طب النساء كانت مصيبة في تشخيصها! لأنني بعد أن أجهضت وخرج من رحمي الجنين الصغير! وكانت دمائي حينها لا تخرج مني فقط بل تتفجر وتندفع بقوة! حينها استحضرت كلامها أي كلام هاته الطبيبة المنتمية لتعاضدية التعليم وبي رغبة ملحة لو استطعت حينها أن أحمل جنيني الصغير جدا وملابسي الملطخة بالدماء وأرميها في عيادتها وأخرج بدون أن أنطق بكلمة لنفيها لوجود ذلك الجنين! كيف يشخص بعض أطباء وطني بعض الحالات الحرجة أو الخطيرة وأحيانا حالات مصيرية كخروج إنسان إلى الوجود بهذا العبث؟ وبتلك السرعة وتلك الثقة في النفس، لا لشيء إلا لمجرد أن الزبون أمامهم أهم ما يميزه أو أحسن ما فيه نقوده التي سيدفعها نظير ما يتفوهون به من ترهات وأخطاء فادحة لا يحاسبون عليها.

فهل كل نساء ورجال التعليم المنخرطين في تعاضدية التعليم لهم القدرة المادية للذهاب عند أربع طبيبات للتشخيص في مدة لا تتجاوز الأسبوعين وقبل توصلهن بالراتب الشهري؟ -ما وقع لي كان في منتصف الشهر- وللتأكد من الطبيبات أيهن على صواب عبر تناقض تشخيصهن وتضاده. فكما يقال من ضدها تعرف الأشياء. فهل لو كنت اعتمدت على تشخيص هذه الطبيبة التي قالت: أنه حمل بكيس فارغ ولا أعرف هل الفراغ برحمي أم بدماغها؟ ولو لم أقم بالتحاليل الطبية اللازمة في حالة الإجهاض والتي طلبتها مني الطبيبة في حالة النزيف مثل مدى تختر الدم عندي ومدى إصابتي بفقر الدم وغيرها من الاحتياطات اللازمة

عند كل إجهاض. وكنت أجهضت مثلا وأنا أعاني من عدم التوازن في إحدى هذه التحليلات بناء على صاحبة الدماغ عفوا الكيس الفارغ! ألن يكون مصيري حينها على الأقل نزيف حتى الموت؟ أو حتى إذا حملت بقدرة قادر إلى المستشفى وأردوا تزويدي بالدم، مع جهلهم لفصيلة دمي ألن يكون مصيري نفس الشيء أيضا!!؟ مع أني أثناء الوضع في المرتين معا التي أنجبت فيهما أولادي، أحقن بعد الوضع مباشرة ليكف نزيف دمي الذي يخبرونني به ويقومون بكل الاحتياطات اللازمة حتى لا أنزف فيما بعد، ومنها إضافة ليلة مبيت أخرى استثنائية لي على خلاف النساء اللواتي يضعن مثلي بطريقة طبيعية ويخرجن اليوم الموالي مباشرة. فأبيت في المستشفى والحقنة مغروسة في ظهر يدي للتدخل السريع في حال النزيف والذي يمثل أول أسباب الوفيات عند النساء الحوامل، يضع بلادنا في مصاف الدول الرائدة من كثرة الوفيات أثناء الولادات، ومن أواخر الترتيب العربي وخصوصا العالمي. أم أن هذا الترتيب قضاء وقدر فقط!!

يا ويلاه ويا حسرتاه عليكن يا نساء وطني! ويا ثكلي على القوارير وما يتربص بكن على أيدي بعض ممتهني مهنة الطب، والأخطاء الفادحة المرتكبة بعبثية مجانية في بلادي! مع أنه في الموروث الشعبي وحتى طبيعة الأنثى ورغبتها في الأمومة سبب تواجدها في هاته الحياة يدفعانها للإنجاب والبحث عن طفل بكل الطرق حتى بالنسبة للواتي استعصى أو طال عندهن الأمر، فإنه والحال كذلك لا مفر من أيدي بعض العابثين والمستسهلين لمهمة ومهنة الطب. هذا عن النساء المحظوظات!! اللواتي يعملن بالأماكن الحضرية أو اللواتي أزواجهن يعملون بالمدن!

فماذا عن التعيينات التي تطال رجال ونساء التعليم في الأماكن المهمشة حيث لا طرق ولا وسائل نقل ولا مستشفيات وماذا عن

المغرب العميق! أي مصير؟ وأي إنجاب؟ وأي إجهاض؟ فهناك يعيشون على الطبيعة أقرب منهن إلى الحياة الحضرية، ويلدن بالفطرة في الألفية الثالثة حتى زمننا الذي ننتمي إليه، في زمن التكنولوجيا المتوحشة هذا، الذي تحول العالم بفعلها إلى قرية صغيرة. وأستحضر هنا حكاية رجل تعليم ابتدائي عين بمناطق ثلجية وهو لا يفقه في هذا المناخ وهذه التضاريس شيئا لأنه لم يعش حياته في مناطق جبلية بها ثلوج، وحظه العاثر ربما جعله يمتهن هذه المهنة، فشاءت الأقدار أن يعمل ويعيش بمناطق ثلجية من أجل التدريس، فألم المخاض بزوجته وذهب ليبحث لها عن مولدة أثناء عاصفة ثلجية وليست له أدنى خبرة في التعامل مع هذا النوع من العواصف، فوقف تحت شجرة حتى تهدأ العاصفة الثلجية فتجمدت أوصاله وهو تحتها، فمات وهو لا يعلم أن ما يقي الإنسان من الأمطار ليس هو نفس ما يقيه من الثلوج، ولا يعلم أن سكان مثل هاته المناطق يواصلون السير بسرعة حتى لا تتجمد دورتهم الدموية وحتى لا تتجمد أوصالهم، ومات قبل أن يرى طفله أو يحمله بين يديه.

فرغم سني الذي تجاوز الأربعين ورغم ما أمضيته من عمري من تجارب حياتية ومن إنصات لحكايات الناس، لم أسمع قط عن حمل بدون جنين، فأين الجنين؟ الذي أثبتت الطبيبة المختصة الأولى وجوده؟ هل ابتلعه رحمي؟ هل ذاب مع خلايا دمي؟ هل طار بأجنحة في السماء وأنا غافلة من أمري أو نائمة!؟ هل الطبيبة الأولى درست الطب والثانية درست الدجل أو العطارة؟ أم العكس الطبيبة الأولى تخيلت الجنين هي ومختبر الدم الذي أثبت الحمل بارتفاع هرموناتي أم الطبيبة الثانية هي من على صواب!!

يا ربي ما هذا الذي يلم بي؟ وما هذا الصراع الذي خلقه الأطباء عندي؟ والذي زاد الطين بلة أن جل علامات الحمل التي تعاني منها

أغلب النساء عادة كالقيء لا أعاني منها حين أكون حبلى، حتى ذلك التثاقل والوحم الذي أسمع عنه لم أجربه قط حتى حين أنجبت ابنتي وولدي فلم أعاني منه كثيرا!

وأنا في هذه الصراعات وهذا الزخم من الأفكار المتلاحقة وإحساسي بجنيني في بطني وصدري يؤلمني حين أتحرك في سريري، وفرحة ابنتي القصوى وسعادتها الفائقة بخبر حملي وهي تقول: ستلدين هذا الطفل الصغير على خير وسيكون أروع وأجمل وأذكى منا أنا وأخي وسيكون سليما إن شاء الله، وسأتكفل بكل احتياجاته وكل رغباته وسألبسه بذوقي وسأعلمه الموسيقى التي أحب، وكل ما يريده وكل ما حرمتموني منه سأعلمه إياه، أما أنت أمي لا تتحركي فكل طلباتك سأنفذها لك.

وفي كل هذا اليم الهائج من الأحداث والأفكار، وزوجي الذي بعد سماعه أن في رحمي حمل بدون جنين تفاجأ وأخذ يحاجج الطبيبة ويسألها دون أدنى اهتمام منها، فخرجنا من عيادتها مذهولين صامتين، بقينا كذلك إلا إذا نطقنا ببضع كلمات، رددت إليه سماع كلماته حين عرفنا أول الأمر عدم وجود الحمل وقلت له «أليس هذا ما أردته، ارتحت الآن!؟» غضب مني وصمت ولامني فيما بعد. ألم يدرك ألم وقع نفس الكلمات علي حين اكتشفنا الحمل أول مرة؟ حتى حين وصلنا إلى البيت بقينا على حالتنا، بعدها أخذ يسألني: «ما بك؟ لماذا أنت صامتة؟ تكلمي معي! ماذا ألم بك؟!».

أحسست وكأنه يستهزئ مني؟ ما بي!؟ وكأنه لا يعلم ماذا ألم بي! فأنا مجرد وعاء كان يحمل جنينا فخلقت السعادة لمن حولي، وبدأ كل ينسج أحلامه الوردية في استقبال المولود الجديد. وبعدها أنا نفس الوعاء الذي لم يعد يحمل ذلك الجنين! فأنا لا أهم! كل ما يهم هو ذلك الوعاء والجنين!

بعدها وقفنا صامتين، باردين جامدين مستبلدي الأحاسيس. فقمنا بعدة فحوصات أخرى عند طبيبة مختصة أخرى -الرابعة- تأكدت أن الجنين موجود وقد توقف عن النمو ودقات القلب متوقفة أيضا، وبالنسبة لي معناها الإجهاض مرة أخرى، بعد ثلاث سنوات من إجهاضي الأول ونفس المعاناة أو أكثر لأن هذا الجنين الثاني أكبر ذو أسابيع أكثر من الأول ومعناه جزء مني سيتمزق وسيفصل عن رحمي وسيتساقط إربا إربا أو بشكل كامل لست أدري؟؟

فزوجي كان دائما يفضل أن لا أحبل بعد أن أنجبت ابنتي وولدي، أي أنجبت ما يختاره الملوك حسب التعبير الفرنسي "le choix du roi"، ولأنني احترمت رغبته هاته فلم استعمل ما تستعمله النساء من حيل لتحقيق رغباتهن في الإنجاب، مثل ادعاء أن حبوب منع الحمل لم يعد لها مفعول أو بكل بساطة ادعاء نسيان تناولها أو بعض الحيل الأكثر دهاء من طرف أجيال سابقة كاستعمال حيلة "الراكد" في مواقف كثيرة، وأكثرها براءة هو تحقيق رغبة المرأة في الحمل في حالة الرفض. لم أستعمل أية حيلة لأنني متعلمة وأحترم زوجي ولا أحتاج للحيل في التعامل معه بل قد أنحو إلى الاصطدام في حالة لو كنت صممت على الإنجاب، فأحيانا التعلم والأخلاق يجعلان الإنسان أكثر اصطداما مع الآخرين في مواقف كثيرة من أمور حياته، بينما الجهل وقلة الوعي وأحيانا الجهل الماكر يقي صاحبه الكثير من المعيقات والمشاكل والاصطدامات اتجاه الكثير من المواقف والأشخاص خصوصا المقربين منه.

كل ما سبق كتبته كان قبل لقائي بأستاذي تمحري في آخر الحصص في الفصل الرابع الذي يدرسني مادة سوسيولوجيا التربية، والذي كنت أقصى ما أتمناه أن أدرس عنده ولو لمرة واحدة خلال تحصيلي الجامعي من كثرة ما سمعت عنه. قبل أن أحصل إجازتي، وكذلك كان. فقد

أخبرتني إحدى زميلاتي الطالبات أننا سندرس عنده إحدى مواد الفصل الرابع لهذه السنة 2018/2017 حتى أنها قالت لي: «أبشري إنك نلت ما تتمنين!» وعرفت حينها أنني أعبر عما أحسه مهما حاولت إخفاء ذلك!

هذا كان من حسن حظي طبعا لكن من سوء حظي أنه وقع لي ما وقع -الحمل- حال دون أن أحضر عند أستاذي كل الحصص والأساتذة الآخرين حوالي شهر من الغياب، حتى أنه في الحصة الثانية لي عنده التي ذهبت فيها للكلية بعد أن عرفت من الطبيبة أنه لا مفر من الإجهاض وإسقاط الجنين لتوقف دقات قلبه، استفسر مني عن سبب طول غيابي عن الحصص، فخجلت أن أقول له ما ألم بي، وأنني جئت فقط ذلك اليوم لحضور حصته الأخيرة قبل أن أدخل غمار إسقاط الجنين. وأنني مباشرة في اليوم الموالي وكان يوم أحد بدأت أخذ الأدوية التي تساعد على الإسقاط مع أن الطبيبة أكدت علي أخذها قبل ذلك لكني أجلت أخذ الدواء حتى أحضر للمادة التي يدرسنا إياها الأستاذ وهي "سوسيولوجيا التربية" لآخر حصة في الفصل الرابع.

لا أعرف هل الحياة هي صدف غريبة إلى حد المستحيل أو الخيالي؟ فالإنسان له مواقف في حياته وكأنها مسطرة مرسومة بكل دقة، وتلك الدقة خارقة للتخطيط الإنساني بل هي دقة من قوى خفية تحركنا إلى حيث لا ندري، ندرك من حين لآخر أن أيادي خفية تحبنا تكرمنا من حين لآخر أو تقودنا لما نحلم به أو نرتجله في تفكيرنا.

ففي الفصل الثالث وأنا أستعد لاختبارات الدورة الخريفية في ليلة من ليالي شهر كانون الأول وحوالي الساعة الثالثة قبل الفجر توقف دماغي عن الاستيعاب، فأنا من عشاق الليل أحب سكونه وأحس أنني أكون بذروة نشاطي بعد نوم الجميع حين لا نسمع إلا طنين آذاننا، فأمسكت

القلم ووجدت نفسي أكتب عن "الموت المهني" دون أن يتوقف القلم عن الكتابة لم أستطع كبح جماحه أو مداده الذي يسيل على الدفتر الذي أقوم فيه بتلاخيصي وأبحاثي الخاصة عن كل مادة أدرسها وكتبت ما كتبت منذ حوالي ثلاثة أشهر.

وحين جاء الحدث (أنني حبلى) وجدتني أكتب مرة أخرى لأنه حدث غير جسدي هرمونيا وعضويا وزلزل تفكيري، ومع هذا النوع من الأحداث اللاعادية واللامتعمدة واللامخطط لها، وجدت نفسي أكتب لأفاجأ في آخر حصة ذهبت فيها للكلية بعد أن سألت أستاذي عن منهجية البحث، يقول لي: أحضري لي أي شيء مكتوب من طرفك. استغربت كلامه! واستطرد: ولو نصف ورقة!

هذا البحث الذي اقترح علي عنوانه -أستاذي- منذ الفصل الأول عن طريق الصدفة بعد حوار بيننا لم يتجاوز من الساعة إلا ربعها، ليقول لي بحنكة دكتور متمرس وعين ثاقبة لمحلل وأستاذ علم نفس ضليع، ومفتش تربوي سابق وهذه الصفة الأخيرة اكتشفتها صدفة بعد قراءتي لروايته "مارتيل"[1] الواقعية، هذا العنوان أقصد عنوان البحث الذي تفاجأت به منه وأنا لا زلت في الفصل الأول بعد أن عرف بعض التفاصيل عن عملي ووضعي حينها وهو: "المعوقات السيكوسوسيولوجية لدى المدرس المغربي بالتعليم الأساسي". وعقبت: «أريد أستاذي أن أتكلم عن خصوصية المرأة» فوافق على الفور وقال: «اكتبي المرأة نموذجا». لم أعرف حينها لماذا ركزت على المرأة؟ ربما لأن ما وقع لي من موت مهني كنت أرى خصوصية المرأة حاضرة فيه وبقوة وهي خصوصية أراها مختلفة عن خصوصية الرجل، ولها من المؤثرات السيكولوجية والسوسيولوجية التي تعيشها أغلب النساء والتي لا يمكن أن يحس بها

1- د. تمحري عبد الرحيم: «مارتيل»، رواية واقعية. طبعة 2013.

الرجل أو أن يلمس مدى عمقها، ولا يمكن حتى أن يكتب عنها لأنها مثل الإحساس "بالموت المهني"أو الاحتراق المهني" لا يحسه إلا من عاشه. وما كنت أقصده حين ذكرت خصوصية المرأة، ما للمرأة من خصوصية خاصة جدا، فهل للرجال أثداء؟ وهل للرجال أرحام؟

وهل للرجال عائق مادي ونفسي يحدث كل شهر كالدورة الشهرية عند جميع النساء؟ هل من يضع الطفل متعة كالتي تضعه كرها؟ لا أوجه للتشابه بين الرجل والمرأة أو حتى أوجه تقارب، أو حتى أنه يمكنه أن يحس بأحاسيسها مهما حاول فهمها أو فهم سيكولوجيتها، لا أظن أنه يمكن أن يفهم المرأة إلا المرأة، حتى أن أكثر المبدعين الذين سبروا أعماق المرأة من ذكور، لا أظن أنهم عبروا إلا عما سمحت لهم به الأنثى أن يعبروا عنه، حتى "نزار قباني" الذي تذوب جل النساء في إبداعات أشعاره، لا أظنه عبر إلا في محيط ما سمحت له به الأنثى رغم ما جادت به قريحته في أرقى إبداعاته ربما حتى حين كتب أروع قصائد الرثاء في حق زوجته ومحبوبته بلقيس.

ولا أظن أن المعوقات السيكوسوسيولوجية التي تعرفها المرأة إذا أحصيناها كميا ودرسناها كيفيا ستكون هي نفسها تلك التي يعرفها الرجال أو بنفس حجمها ولو امتهنوا نفس المهنة وهي التدريس وتشاركوها في نفس المكان ودرسوا نفس المناهج.

- فهل للرجال أثداء يرضعون بها الأطفال؟

- وهل للرجال طمث كل شهر؟

- وهل للرجال أرحام تقتحم؟ وهل للرجال أرحام تخرج منها الحياة بعد أن تكون داخلها؟

- وهل للرجال غشاء بكارة تمزق؟ وهل الرجال يضعون رجلا في الدنيا وأخرى في الآخرة عند كل وضع أو إجهاض؟؟

- وهل للرجال دم نفاس؟ وهل الرجال يضعون الأجنة في الأرحام كرها وألما؟

- وهل النساء يضعن الأجنة من الأرحام متعة؟

- وهل يضعن الأجنة دوما في هذا الوجود فرحة وحبورا بعد تحمل أثقال الحمل وآلام الوضع بقوة وصبر كبيرين؟

ألا يتوانين عن وأدهم باستمرار في مجتمعاتنا اضطرارا؟ فزمن الوأد لم ينته بعد ولن ينتهي في مثل مجتمعاتنا بشكل يومي، هل الوأد يكون عن وعي أم عن اضطرار؟ في بلدان ينتفض فيها الذكر ويغتسل من آخر قطرة عرق بمجرد قذفه بالنطفة التي قد ينهي بعدها علاقته مع الأنثى إلى الأبد إذا أراد ذلك مع عدم الزواج؟

هي نفس النطفة التي تصبح جنينا ثم طفلا أو طفلة جميلة نفرح بها وننظر إليها بكل الحب وبكل السعادة وبكل الخيلاء بتحقيق أمومة أو أبوة منشودة بعد الزواج، وكأحلى ثمار نجنيها من هذه الدنيا، وكأشد المصائب قسوة إذا كتب لأحدنا فقدانها وهو مازال على قيد الحياة. ولأهون على المرء منا أن تأخذ المنية عمره على أن تسلبه لأحد فلذات كبده وهو على قيد الحياة، فذاك من أشد مصائب الدنيا التي لا يمكن أن يتحملها أحد في مشارق الدنيا ومغاربها، وذاك إحساس كوني يتشارك فيه الإنسان والحيوان على حد سواء. فكيف لقطة هادئة أليفة ترنو إلى لمسات ناعمة أن تتحول إلى قطة هوجاء شرسة إذا حاول أحد ما الاقتراب من صغارها؟ كيف لهذه القطة أن تكون أكثر ذوذا عن صغار لا حول لهم ولا قوة وأن لا تفارقهم حتى يشتد عودهم؟ كيف يمكن أن يكون الحيوان أرحم من بشر يرمي بفلذات أكباده بعد الوضع مباشرة في كثير حالات، بالأماكن المظلمة على الأرض أو على التراب مباشرة أو في القمامات أو في أقذر الأماكن دون رحمة في مجتمعات لا

ترحم ولا تتحمل أمهات وأطفال موصومين برذيلة لم يكن لهم فيها أي نصيب من اقترافها غير حظهم العاثر ووجودهم بالخطأ وليس بالاختيار في أرحام إناث لم يحترمن المساطر القانونية المسنونة في مجتمعاتهن، ولم يحترمن الشرع، بل الأكثر تمردا منهن لم يحترمن مجتمعات تضع نواميسا للتواجد بها وللاعتراف بأفرادها، في مجتمعات قد ترى وتسمع بها يوميا عن أطفال ازْرقَّ جلدهم، عراة مغروسة هي أوجههم في الوحل، كما رأيت يوما في إحدى الجرائد الإلكترونية التي وبكل قسوة تضع هكذا صور ويسمح لهم بنشرها والتي طردت النوم عن جفني لليال عديدة، لازلت أتذكرها وكأن الذي رمى بالطفل بالظلام يتبرأ من وجهه ومن جسده الذي غُرس نطفة في رحم ثم نما وكبر لتكبر الفضيحة، ويتنكر لها ذكر وتئدها أنثى في مجتمعات ليست كغيرها من المجتمعات التي تربي ذكورها على الاعتراف بالخطأ وتحمل كامل المسؤولية في مثل حالات كهاته، وحتى إن لم يتحملها أحد وتنصل منها الطرفين فإن المجتمع يتحملها ويتبناها ويوفر لها كل شروط الحياة الكريمة ليتحول ذاك الخطأ إلى فرد صالح في مجتمع يدعو إلى الاعتراف بدل مجتمع يدعو إلى النكران، وينشئ ذكوره على الانتشاء بالفحولة وعلى الفخر بالذكورة وعلى التفنن في التملص من أخطاء قد تتحول إلى إنسان يُرمى به بكل بشاعة على ناصيات الطرقات وفي الأماكن والأوقات المظلمة، خوفا من فضيحة أنثى تلد بدون ذكر بعد أن حبلت منه.

كنت أتأسف وأغضب عند ملء ملفات التلاميذ البرتقالية اللون آخر السنة حين ألمح في أحدها أمام خانة اسم الأب كلمة «لقيط»، ولا أعلم كيف هو مسموح لموظفي مكاتب الحالة المدنية بكتابة كلمة هي سوط دائم اللسع لحياة إنسان حتى الممات، نحن لا نعتذر له ولا نكتفي بوصمه «بولد الحرام» بل يجلد باستمرار مدى الحياة من طرف

كل من طلب منه شهادة ميلاد، ورمْقها من طرف كل من هب ودب.

وبمجرد تعلمه وفهمه لأبجديات الحروف حتى يطلع على حقيقته المرة، وكون هويته/ لقيط، فحتى إن نجى بقدرة قادر من الوأد وهو حي يرزق فلن ينجو قطعا من سوط العقاب مدى الحياة بهذا الوصم الملتصق به والذي لا ذنب له فيه غير أنه من أب موقوف الأبوة بمجرد اغتساله من آخر نقطة عرق بعد الوطء ومن أم موقوفة الأمومة بعد الإنجاب مباشرة، ومن مجتمع بمجرد عدم الاعتراف به، لتضيع كل حقوقه وإنسانيته وهويته وحياته ككل.

عشت حياتي لا أدرك الفرق بين شخص معترف بهويته وبين غامض ليس ذنبه أن لا يعترف له بها/ هويته! لأنني عشت أغلب أيام عمري أتقاسمها بين العيش في بيتنا وبيت غير بعيد عنا حيث يعيش اللقطاء أو الفضلاء الذين أحبهم وأحترمهم أيما احترام، كانت إحداهن صديقتي المفضلة التي درست معي وأصبحت الآن تتبوأ أحد المناصب المهمة في المجتمع ولنا معا صديقة ثالثة كانت أكثر حرصا منا معا على دراستها، وحصلت على شهادة جامعية لكنها بقيت فريسة للبطالة إلى أن تزوجت ورحلت إلى الديار الإيطالية حيث أنجبت خمسة أطفال، كانت تردد دائما أنها تريد أن تنجب إخوة لها من بطنها، لأن لا إخوة بيولوجيين لها. فقد سمعت من الفاضلة التي تبنتها أن أمها البيولوجية منحتها إياها وهي عابرة سبيل تحت طائلة الفقر -حصلت هذه الواقعة في الستينات- وبأن لها إخوة آخرين لم تتوصل لمعرفة سبيلهم طيلة حياتها رغم محاولاتها العديدة لذلك، وشاءت الأقدار أن تفقد في حالة غرق مأساوية -تحدث عنها الإيطاليون طويلا- ثلاثة من أطفالها كانوا يحاولون إنقاذ بعضهم البعض وهم يسبحون ويمرحون بإحدى البحيرات الإيطالية بمدينة تسمى (Modena). حضرت الأم من أجل دفن اثنين

في المغرب هي والأب، وبقي الثالث بالديار الإيطالية على أمل أن يتجاوز مرحلة الخطر لكنه لحق بإخوته وهو يتصارع والموت.

هي لم تئدهم لكنهم ماتوا غرقا ولم تختر أمها وأدها بتخلي ذكر/ شريك عن الاعتراف بها، بل هو الفقر من جعلها تتخلى عن فلذة كبها أو أن تمنحها لمن رأت أن ظروفه أفضل من ظروفها رغم وجود أب معترف بأبنائه، ولم يجعل منهم لقطاء بزواجه لكنه هو الفقر من جعل إحدى بناته تصبح لقيطة بل هي فاضلة مثل كل إنسان هو فاضل وحر وغير مستعبد، وكونه إنسان يستمد إنسانيته من أنه خلق في أحسن تقويم.

اقترحت على زوجي بعد إجهاضي لثاني مرة دون علمي بحملي أو التخطيط له أن أتبنى طفلا من أحد «دور الأيتام» يطلق على هذه المؤسسات هذا الاسم رحمة بنزلائها على مناداتهم ووصمهم بلقطاء، فرفض ذلك بشدة واستغرب رغبتي هاته، كرغبات كثيرة نطمرها ونئدها بزواجنا مستنكرا عليّ ذلك وقد أنعم علينا الله بذرية من صلبنا!

ولأنني لم أعد أقوى على الصراع والجدال الكثير رأفة بصحتي التي لم تعد تتحمل فقد وأدت رغبتي بعد استشارتي مع بعض الأشخاص منهم طبيبة العائلة الذين استنكروا عليّ هم أيضا مثل زوجي هذه الرغبة/ هذا الجرم!

أردت التبني، ورغبت فيه بقوة وتوسلت لزوجي لذلك ولكنه رفض بشدة، فلم ألب رغبتي ووأدت فكرتي في مهدها.

فهل سلوكاتنا تكون دائما عن وعي أم عن اضطرار؟

فالأبناء كالصحة فوق رؤوس الأصحاء، فهم تاج فوق رؤوس الولودين لا يراه إلا العقيمون أو من تأخروا في الإنجاب.

هكذا عايشت مع إحدى صديقاتي الأستاذات مأساة عمرها وهي تبحث عن طفل، وبكائها الشديد نهاية كل شهر عند لمحها لعلامات

الطمث، وخسارتها لأموال طائلة خلال عملية التنقيب عن الذرية عبر عمليات زرع باءت كلها بالفشل، أو بشراء عقاقير تساعد على الإخصاب لم تَفِ بالغرض، أو بالتنقل من مدينتها التي تنعدم فيها مثل هذه التخصصات إلى مدينة الدارالبيضاء والرباط ومراكش باستمرار، فلم تتوان في بذل كل غالٍ ورخيص من أجل أن تحبل إلى أن انتهى بها الأمر إلى التبني بعد صراع مرير مع زوجها الذي كان يرفض الفكرة، فلمست مدى ألم ومعاناة ومأساة من تخونهن أرحامهن بعدم الإنجاب، ومن يخونهم المجتمع لإخصابهن من طرف ذكور/ شركاء معصومين من الاعتراف إن لم يرغبوا بذلك، وعشت عمري كله فخورة لمصادقتي لأرقى النماذج الموصومة في مجتمعاتنا بكلمة لقيط.

بعد أن سلمت الأستاذ تمحري ما كتبته وذلك بعد طلبه لي بأن أمده بأي كتابة لي عن موضوع بحثي ولو نصف ورقة، ليقول لي: «انطلقي من الأسئلة الثلاثة الأخيرة كموضوع لبحثك» حين تساءلت في مسودتي هل للنساء والرجال نفس «الاحتراق المهني»؟ وبأي معنى يكون الاحتراق مهنيا عند النساء وما هي تجلياته؟ وبأي معنى يكون الاحتراق مهنيا عند الرجال وما هي تجلياته؟ وما هي المعوقات السيكولوجية والسوسيولوجية لدى كلا الجنسين بالتعليم الأساسي؟

ثم قال لي أيضا: «اكتبي أكثر عن ذاتك لتحرريها من آلامها». وكذا كان فقد بدأت أكتب لكن عن ذاتي فقط، وأهملت الكتابة عن موضوع بحثي «الاحتراق المهني» حتى فاقت الكتابة مجرد صفحات عن الأسباب الذاتية لاختيار موضوع بحثي، وتحولت كتابتي تلقائيا إلى سيرة ذاتية دون دراية أو تعمد مني، أو هي بالأحرى سيرة عن كل ما يتعلق بمهنة التعليم وعن علاقتي به، أكثر منها سيرة ذاتية عن شخصي بالذات.

إخفاقاتي... اختباراتي... نجاحاتي... وانعتاقي...

وقبل أن أبدأ أول اختبار لي وخلال بحثي عن الرقم والقاعة المخصصة للمادة الأولى وهي اللغة الفرنسية، فوجئت من طرف الطلبة يخبرونني أنني لا أنتمي للفوج "أ" الذي أدرس مع طلبته، بل إنني أنتمي للفوج "ب" لأن اسمي العائلي يبدأ بحرف "G" وهذا الحرف اللاتيني في الجزء الثاني من اللائحة، وهذا معناه أن أغلب المواد مختلفة هي محاورها عن المحاور التي درستها في فوجي "أ"، لأننا لا ندرس بنفس الشكل! فكل أستاذ يحدد محاور مخالفة لما يدرسه الأستاذ الآخر، أخبرني الطلبة أنهم في مادة "مفاهيم فلسفية" يدرسون عن العدالة والحرية والحق والسعادة...دارت بي الكرة الأرضية وليس مكاني فقط!

هذا معناه أن كل المواد التي اعتمدت عليها أثناء استعدادي للاختبارات لا تصلح كأجوبة على أسئلة الفوج الآخر، في حين أن فوجنا في "مادة مفاهيم فلسفية" درس عند أستاذ الشتوكي فلسفة ما قبل أفلاطون وأرسطو، درسنا عن الفيلسوف الشاعر "بارمينيدس" وقد حلقت مع شعره وفي سمائه، ولا توجد فرصة أمامي لتجميع المواد ومراجعتها، فأنا لا أعرف أحدا من طلبة الفوج الثاني، لأن جل الطلبة تفرقوا استعدادا لاختبارات الدورة الخريفية، فمنهم النازحين من مناطق بعيدة كالحسيمة، والشاون... فهم يغادرون إليها خلال فترة الامتحانات من أجل الاستعداد لها وهم بين ظهراني ذويهم وأسرهم، لأجد نفسي في أول امتحان لي بعد أن جمعوا أغلبنا في المدرج الجديد الأول، كان

حينها بدون اسم وقد طرح أحد الأساتذة علينا سؤالين، كل سؤال خاص بفوج حسب المحاور التي درسها الطلبة!

كل أجواء الامتحان بالكلية كانت جدا غريبة عني، انتابني الضحك وأنا أفاجأ بطرح الأسئلة شفهيا في الجامعة! في أي نوع من الاختبارات نحن؟ مع أن هذه اختبارات التعليم العالي أو التعليم الجامعي، فأين هذا العلو؟! أين هي الأوراق المذيلة بأسئلة الاختبار؟ أين هو الصمت المطبق الذي يسود اختبارات العالم بأسره؟

وأذكر أن من بين من حرسونا الدكتور بوطالب عبد القادر وفي لحظات عمت الفوضى بسبب الغش، فهو أي هذا الأستاذ من أعداء الغش ويقف كحصن منيع له بالمرصاد، لم أستوعب أول وهلة أن هذه أجواء الاختبارات الجامعية التي أصبحت عبارة عن حلبة صراع قوي بين الطلبة والأساتذة من دقائقها الأولى من أجل محاربة آفة الغش، وكيف أن بعض الطلبة لا يخجلون بعد مطالبة الأساتذة لهم بوضع الورقة والخروج مطرودين بسبب الغش، بل قد يرفضون الانسحاب، بل الأدهى والأمر من هذا إنهم يحتجون وكأن لهم حقوقا يطالبون بها. بقيت أولى الحصص مندهشة جدا ولوقت ليس بالهين غير مركزة بتاتا ولا أكتب بل متتبعة لصراعات الأساتذة والطلبة بسبب الغش.

وبعد انتهاء كل حصة أو مادة اختبار، كنت أذهب عند الأستاذ الذي يدرسني المادة وأشرح له أنني مخطئة في التفويج، وأنني لم أعلم بذلك إلا عند حلول اليوم الأول من الاختبارات، فتفهم جل الأساتذة الأمر، وفهمت بعد ذلك أن التفييئ حسب منظومة "مسار" وأرقامه يفرض عليهم بأن لكل أستاذ لائحة خاصة بمجموعة طلبة هو مسؤول عن تصحيح أوراقهم ومسك النقط لديهم، كما هو الحال عندنا في التعليم الأساسي، وهي الطريقة الجديدة التي أصبحنا نعمل بها والتي تضمن

الكثير من التنظيم والضبط، لكن التلميذ أصبح رقما في منظومة مسار، وعدم وجود الرقم يعني عدم وجود التلميذ أو الطالب ولو كان ماثلا أمام أستاذه، والكثير من الحلول في التدريس تلاشت، والطرق الإنسانية ألغيت بسبب مسار هذا.

ذهبت أبحث عن مقر رئاسة الشعبة الذي ولجته أول مرة وعرفت مكانه أثناء اختبارات الدورة الخريفية، حتى أوضح لرئاسة الشعبة اللبس الذي وقعت فيه، وكوني أنتمي لفوج "ب" وأجبت على الأسئلة المطروحة على الفوج "أ" الذي كنت أدرس معهم. وحينها لم تكن الاختبارات في السنة الأولى بالتنظيم والتفييئ والترقيم والأجواء التي تمر فيها الاختبارات حاليا، مع عدم التساهل مع أي طالب إذا غير قاعته أو مكان رقمه ومراقبة بطاقة كل طالب بدون استثناء في كل مادة اختبار كما هو الشأن عليه الآن.

في رئاسة الشعبة كان المكتب موصدا وأمامه طلبة كثر كل يغني على ليلاه، وطرقت الباب فأجابني رجل سمين بمقر شعبة علم الاجتماع، بغلظة وصوت مرتفع وبلهجة حادة بعد أن سمع جملة أو جملتين مني دون أن يترك لي فرصة للحديث، ليأمرني بالمغادرة دون أن يترك لي فرصة الكلام مع أساتذتي الذين يدرسونني، وقال لي: «سنحل هذه المشكلة ولست مرغما على أن أشرح لك تفاصيل عملنا!». غضبت جدا لأنه صرخ في وجهي ولم يهتم لأمري، واستغربت كيف يصيح بي وأنا بهذا العمر؟ فأكيد هو ميز أنني لست بسن أغلب الطلبة؟ كيف يجرؤ على الصراخ بوجهي؟ كنت على وشك أن أكيل له الصاع صاعين وقاب قوسين من أن أصرخ بوجهه.

فمنذ إحساسي وإصابتي بالمرض وخلال علاجي لم يعد عندي الصبر لإهانات أو صراخ أو غضب أحد! لم يعد عندي لباقة التعامل الاجتماعي

أو الرضوخ لأحد مهما كان! ولولا أن نظري وقع على الدكتور المعتصم الذي قال لي بكل أدب وكعادته: أعدك أن هذا المشكل سيحل وعلى مسؤوليتي لا تخافي-وطبعا احترمت أستاذي -فلولاه لاستشطت غضبا على ذاك الذي عاملني كطالبة صغيرة السن، ولكنت من الدورة الأولى منسحبة من هذه الكلية، فقد أصبحت لا أقوى على أن أعامل بغلظة أو قسوة أو عدم أدب لأي سبب ومهما كان.

لمحت بعدها أستاذ بوطالب الذي كان أول من طرحت عليه هذا الموضوع وهو يحرسني في المدرج ليقول لي: «المهم أكتبي اسم الأستاذ الذي يدرس لك المادة في ورقة التحرير»، لأفاجأ به في مقر رئاسة الشعبة يخبرني بأن ليس من حقه تصحيح ورقة امتحان تنتمي للائحة الأستاذ الثاني للمادة، فوجئت جدا برده المعاكس لموقفه الأول، لكنني التمست له العذر، وقلت في نفسي أكيد أن الأستاذ نسي وعده لي مع ضغط الامتحانات هذا ولتواجد الطلبة بكثرة في رئاسة الشعبة. فكل ومشكلته مع تواجد وفير للطلبة الذين يريدون استرداد بطائقهم التي تسحب منهم في حالات الغش، فأكيد هو مضغوط فقط، فخمنت أنه بعد تصحيح أية ورقة، ستكتب نقطة الطالب، وسيتم مسكها وحفظها من طرف أستاذ المادة. وبقيت أمني نفسي بهذا الظن أو اليقين وهذه القناعة إلى أن حان وقت إعلان النتائج الذي طال جدا عندي، ولم أتوان في كل مرة عن سؤال بعض الطالبات اللواتي أتواصل معهن عبر الهاتف عن وقت إعلان النتائج، ليخبرنني في كل مرة أن الوقت سيطول لأكثر من شهر، وبأننا قد نواصل الدراسة والنقط غير معلنة.

فانتظرت طويلا كما لم يطل عندي الزمن يوما، حتى حلت ليلة من ألف ليلة، وقبل خلودي إلى النوم وأنا ممتدة في سريري قمت بإطلالة على هاتفي المحمول كما تعودت حوالي منتصف الليل، لأجد أن

طالبتين يدرسان معي قد أرسلتا لي نقطي في كل مادة، لم أصدق عيناي في الوهلة الأولى، ناديت ابنتي بقوة التي كانت ساهرة تراجع دروسها استعدادا لامتحان لها في اليوم الموالي، قلت لها بل صحت فيها: هل ما أراه صحيح؟ خذي هاتفي واسردي علي نقطي في كل مادة! فهي من أجيال الهواتف الذكية، وربما لم أفهم ما هو مكتوب جيدا لتؤكد لي صحة ما رأيته بأم عيني، بدأت أصيح وأخذت أقفز على السرير كالطفل الصغير، ربما لم أقفز على السرير منذ طفولتي، فمجموع نقطي يفوق الاثنا عشر نقطة من عشرين، يعني أنني حصلت على الامتياز، وهذا يعني أن إيجاباتي كانت صائبة أو قريبة من الصواب، يعني أنني لازلت بكامل قواي العقلية، وأن تفكيري سليم، وذاكرتي التي خربت لا بأس بها ومعنى هذا كله أنني لازلت إنسانا بعد أن فقدت إنسانيتي بمرضي، يعني أنني لم أعد شخصا ممسوخا لا هوية له ولا مسحة من الإنسانية لديه! يا إلاهي ما دفعة الخير هاته كلها في حياتي؟ ألا زال عندي أمل! أما زلت أعطي شيئا في هذا المجتمع؟

أخذت أقفز وأقفز حتى قام زوجي مذعورا من نومه، لأن النقط توصلت بها في منتصف الليل، ولأني آخر من ينام بالبيت دائما، عانقت ابنتي وأنا أقفز وأدور معها في غرفتها، فبارك لي زوجي وابنتي النجاح بامتياز، وبعدها قال لي زوجي تصبحين على خير! تساءلت مندهشة: «أبعد كل هذا الخير الذي أمسيت عليه أستطيع النوم لأصبح عليه، قم سنخرج لنحتفل!».

خرجنا ثلاثتنا، تركت ابنتي كتبها ومراجعتها للاختبار في اليوم الموالي، ذهبنا إلى شاطئ البحر، هو نفس الشاطئ الذي كنت أهرب إليه فارة من عملي وأرتمي على رماله باكية غير آبهة لأحد، هي نفس الرمال التي شهدت حزني الشديد قبل مدة لا تتجاوز الثلاثة أشهر فقط، فارة من مهنتي، فارة من بيتي من أولادي من كل حياتي!!

فتحت نافذة السيارة وأنا أصيح بأعلى صوتي كالثمل الذي أطلق لنفسه كل جوارحها وفقد السيطرة عليها، رافعة يدي كالطفلة الصغيرة في الهواء تتلقفه مسرعا في الاتجاه المعاكس لانطلاق السيارة، أي فرحة هاته؟ وأي انتصار؟ وأي شجاعة؟ شجاعة في خوض غمار تجربة يليها نجاح وظفر أو ربما فشل ويأس، أي حياة بعد موت؟ وأي شفاء بعد سقم؟ وأي إحياء لميت بعد دفنه بالحياة؟

أين كانت هاته الأحاسيس مغمورة قبل ثلاثة أشهر فقط، كان لها كل النقيض. قبلها كنت أذهب لممارسة الرياضة أحيانا -رغم تأكيد الأطباء بضرورتها بالنسبة إلي- وأرى النساء يضحكن ويبتسمن وقد يرقصن في آخر الحصة بعد الانتهاء من الحركات الرياضية فأستغرب كيف يستطعن الكشف عن أسنانهن؟ كيف يقوين على الضحك الذي لم أعد أعرف له طريقا!

يا الله ما هذه السعادة التي أحياها؟ من رآني تلك الليلة لن يصدق أنني أنا نفسها من كانت ميتة قبل مدة ليست بالكثيرة وهي فترة ولوجي للكلية من أجل الدراسة بشعبة السوسيولوجيا.

لم نرجع إلى البيت إلا بعد حلول الساعة الرابعة فجرا! لم أستطع النوم بسبب الفرحة العارمة التي حلت بي ليلتها، حتى وأنا في قمة الحزن لا أنام، لكن شتان بين اليقظتين، لا مجال للمقارنة أو لنقط التقاطع أو التقارب. بكثرة الفرحة لم أهتم لابنتي أنا الحريصة أن تأخذ كفايتها من النوم، خاصة وأنها في اليوم الموالي ستمتحن في مادة الفيزياء. تلك الليلة كنت أمسك الدنيا بكاملها بين يدي! أية فرحة هاته لا توازيها فرحة في الدنيا! إنها فرحة النجاح بعد الفشل! فرحة الحياة بعد الموت! فرحة الولادة بعد العقم! فرحة النقيض للنقيض! علاج نتيجته لم تستطع أن تضاهيه وصفات عقاقير أمهر الأطباء أو أي علاج نفسي.

كل نقطي كانت فوق المعدل إلا نقطة مادة "أسس علم الاجتماع" للأستاذ بوطالب[1] فقد كانت سبعة من عشرين، لم أستوعب الأمر وأنا في خضم الفرحة، فرحتي الكبرى! لما حصلت على هاته النقطة بالضبط تحت المعدل؟ كنت سعيدة جدا حتى أنني قلت لإحدى الطالبات اللواتي هنأنني على النتيجة: لا أعلم كيف حصلت على مثل هاته النقطة عند الأستاذ بوطالب؟ مع أنني ركزت جدا على مادته، وبالنسبة لي فجوابي كان شافيا لسؤاله؟؟؟ فقالت لي: إنك محظوظة لحصولك لهاته النقطة عند الأستاذ بوطالب، لأنه يمنح نقطا أغلبها تحت النقطة ثلاثة، وهي نقطة لا تخول للطلبة فرصة إعادة المادة في الدورة الاستدراكية.

استغربت الأمر، لكن الفرحة لم تستوقفني كثيرا عند هاته النقطة، وتساءلت: ما هي نوع الإجابات التي يفضلها الأستاذ بوطالب؟ والذي أحسست أنني استوفيت بإجابتي على سؤاله الذكي والملغم الذي يحد من فرص الطلبة في الغش، ومن لم يركز بشكل كاف على سؤال مادته فلن يستطيع أن يجيب عنه، أما من خولت له نفسه الغش فحظوظه ضئيلة مع نوعية هاته الأسئلة الملغمة. في الحصول على أية نقطة.

حللت بالكلية بمارتيل لأسأل عن منسق المسلك ليرشدونني إلى الأستاذ الزكريتي عبد الرحمن[2]، يعني أنني لن أذهب عند ذلك الغث

1- د. بوطالب عبد القادر: أستاذ شعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل/ تطوان جامعة عبد المالك السعدي، عنوان أطروحته للدكتوراه "اللامركزية كهندسة لمجالات السلطة المركزية وآليات إنتاج النخب المحلية" 2002. له كتاب "طبيعة السلطة السياسية آليات التغيير بالمجتمع المغربي"، له كتاب جماعي مشترك "تأنيث الهجرة والعنف ضد النساء على الطريق"، دار نشر أوروبية. وهو رئيس مجموعة البحث: الديناميات الاجتماعية وعلاقات السلطة.

2- د. عبد الرحمن الزكريتي: أستاذ بشعبة علم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل/تطوان. جامعة عبد المالك السعدي. "ثقافة المقاومة بالريف" عنوان أطروحته للدكتوراه وهي مقاربة سوسيو–أنثروبولوجية واستراتيجية تدبير الحياة اليومية للأسرة القروية. وللدكتور عبد الرحمن الزكريتي مقالة بالإنجليزية وهي قراءة نقدية في نظريات تقييم التراث المادي، والدفاع عن أطروحة حفظه لحاجة اجتماعية داخلية والمقاومة من أجل

السمين الذي طردني من مكتبه. وقد تذكرته أي -الأستاذ الزكريتي- لأنه هو من كان يتنقل بكل خفة وسرعة ويرشدنا أيام الامتحانات للقاعات، ويزودنا بأرقامنا في مسار بالنسبة لمن لا زال لم يحصل على بطاقة الطالب مثلي، فاستفسرته عن الدورة الاستدراكية وبأنني سأعيد اجتياز اختبار مادة أسس علم الاجتماع التي يدرسها، وبأنني كنت مخطئة في التفويج، وطلبت منه أن يدلني على أي مطبوع أو كتاب لأعتمد عليه استعدادا لمادته، لأني لا أعرف حتى المحاور التي قام بتدريسها لطلبة فوجه، ليجيبني بطريقته الهادئة وبابتسامته الدائمة على محياه بأنه لا يملي محاضرات على الطلبة وليس لديه أي مطبوع ويمكنني أن أقرأ ما أشاء.

وقبل أن أنصرف سألني عن اسمي فأجبته وذكرته له كاملا، فضحك وقال لي: إن كل طلبة أستاذ بوطالب الذين أخطأوا الفوج ولا ينتمون لطلبته اقتسم لهم النقطة على إثنين ومنحهم نصف نقطة فقط، وأردف لي قائلا: «إن ورقتك أذكرها جيدا وقد كانت الأفضل من بين الأوراق التي سلمني إياها والتي تنتمي لفوجي، وبالنسبة للمحاور فنفسها ندرسها معا. فواحدة هي محاور أسس علم الاجتماع»، لأن من بين أهم مؤسسي هذا العلم الذي ندرسه "السوسيولوجيا " هم: أوجست كونت وماكس فيبر وإميل دوركايم وكارل ماركس وابن خلدون. كل هؤلاء عظماء وأثروا على السوسيولوجيا بشكل كبير.

لكني كنت أشد إعجابا بماكس فيبر ذلك العالم الألماني الذي عانى ما عاناه من مرض نفسي حال دون قيامه بأبحاثه لسنوات قبل أن يستعيد

ذلك، لأنه لا يصلح للبيع ولا للتبادل، ولا يمكن تقدير قيمته بعين أجنبية ولا بحسابات مالية.

كما له عدة مقالات: اثنتان حول الهجرة وواحدة حول تراث أيت ورياغل الثقافي والرابع حول جيش التحرير والخامس حول منهج الدراسة الانثروبولوجية للفضاءات المغلقة.

Emeraldinsight Journal of Cultural Heritage Management and Sustainabble Devlopment: Abdrrahman Zakriti. Abdelhamid Mkadam. Paul Nieuwenuysen.

عافيته ويستأنف أبحاثه من جديد ويعطي للسوسيولوجيا الكثير فأبدع فيها أيما إبداع.

يا الله يعني عرفت حتى حل لغز نقطة الأستاذ بوطالب، وفرحت جدا بذلك وعرفت أنه منحني ضعف نقطتي التي حصلتها عليها عنده في مادة "أسس علم الاجتماع"، يعني أن إجابتي أعجبته ومعناه أنني قد وضعت الأسس السليمة لدراستي الجامعية.

أفلت للبيت وأخبرتهم بالمفاجأة الجميلة التي أخبرني إياها الأستاذ الزكريتي وهو منسق شعبة علم الاجتماع الذي أضاف عليها الكثير من التنظيم الملحوظ من فترة دراستنا لشعبة السوسيولوجيا أثناء الفصل الأول، إلى أن وصلنا إلى الفصل الخامس، فالفرق شاسع جدا إن على مستوى تنظيم القاعات والمدرجات خلال فترة الامتحانات وما أصبحت تشهده من أجواء سليمة للإختبارت، وإن على مستوى ترقيم الطاولات والحرص على جلوس كل طالب في مكانه الخاص به حتى لا ينتحل شخصية طالب آخر، ومراقبة البطائق الطلابية وفرض الفرق المعقول بين أماكن الطلبة الذي تغير من أربعة طلبة في طاولات المدرج الطويلة إلى ثلاثة فقط، والحرص عل الكثير من التفاصيل الدقيقة التي أصبح مشهود لها بالصرامة والتنظيم والسهر على أجواء وظروف اختبارات ملائمة تتماشى والحياة الجامعية، من احترام للوقت المخصص لاختبار كل مادة وكل ما يتعلق بلوجستيك الاختبارات بشكل عام.

قالت لي ابنتي بعد أن عدت للبيت وأخبرتهم بسر لغز نقطتي في مادة "أسس علم الاجتماع": "حوفيك" باللهجة الشمالية وتعني "هذا جزاؤك" أو "خير جزاء لك"، وأخذت تردد على مسامعي: «إن الأساتذة لا يظلمون الطلبة؟ إن الأساتذة لا يتعمدون الخطأ مع الطلبة؟ إن الأساتذة لا ينتقمون من الطلبة؟ إن الأساتذة جد عادلين أو هم الأكثر عدلا في هذه الدنيا».

هذا هو كلامي دائما عن الأساتذة طيلة فترة دراستهما -ابني وابنتي- حين يأتي أحدهما شاكيا لي من أستاذ له بأنه ظلمه أو فضل زميلا آخر عليه، فكانت دائما تلك أجوبتي لهما، ولا أكلف نفسي عناء الذهاب لمدارسهم. من أجل الاستفسار عن مثل هاته التصرفات أو هذا النوع من الشكوى، لأنني مقتنعة وبشدة أن الأستاذ لا يظلم وحتى إن كان هناك ظلم ما فهو غير متعمد، كما لا تظلم الأم أبناءها عن قصد وكما تكون جد حريصة على أن تعدل بينهم إلا إذا كان هناك انفلات رغما عنها.

فابتسمت وأنا أسمع كلمات ابنتي وأدركت حينها وقع كلامي على نفسيتها لأول مرة عليها وهي في عز إحساسها ذاك بالظلم، حين تأتي باكية لي أو شاكية من أستاذة أو أستاذ يدرسها. وقلت لها: «ومع كل هذا فالأستاذ بوطالب لم يظلمني فقد طبق على كل الطلبة الذي غيروا الفوج نفس المنطق وساوى بيننا رغم اختلاف الأسباب والنيات والدوافع» وأردفت: «كيف سيعرف الأستاذ أو يثبت أنني كنت مخطئة فعلا في الفوج وغير متعمدة لذلك؟ إن ما فعله لهو قمة العدل، أي منحه لنا جميعا نصف النقطة التي يستحقها كل واحد منا! ثم لا تتناسي على أنه لازالت هناك فرصة أخرى أمامنا وهي الدورة الاستدراكية لتدارك الأمر». إلا أنها كررت لي مغتاظة «"حوفيك" مرة أخرى».

أعدت اختبار مادة أسس علم الاجتماع في الدورة الاستدراكية، وللمصادفة العجيبة سيطرح الأستاذ الزكريتي السؤال على نفس المحور الذي طرحه الأستاذ بوطالب أي على أحد أهم مؤسسي السوسيولوجيا وهو "إميل دوركايم"، ولأني كنت جد هاضمة للمادة فلم أجد أية صعوبة في الإجابة رغم ضيق الوقت الذي يتقلص بنصف ساعة في الدورة الاستدراكية بدل ساعتين في المادة في الدورة العادية، وأذكر أنه من بين الأساتذة الذين قاموا بحراستنا أستاذ يمشي مستعينا بعكازين

تحت إبطيه، سأدرس عنده في الفصل الثاني مادة "الديموغرافيا " التي حببها لنا كطلبة وحللها وفتت لنا محاورها، كما تفتت الأم لطفلها الغرير كسرات الخبز حتى يسهل عليه أن يأكلها ويهضمها بسهولة ويسر ويتلذذ بمذاقها.

إنه البحر كما شبهه لي مرة أحد الطلبة حين قال لي متسائلا: هل يوجد على وجه هذه البسيطة ما هو أضخم او أكبر من البحر؟ وهل للبحر حدود أو حد؟ فكذلك الأستاذ جيدة محمد[1] فليس لمعرفته حدود.

يلقبونه كذلك "بغوغل" أو "الحاج غوغل" الذي وبمجرد ضغطة صغيرة، أو بطرح أي تساؤل عليه فهو يستفيض في الجواب بإسهاب وبدقة شديدة على كل ما يطرح عليه، وشخصيا وأنا أستمع لمحاضراته أتخيل نفسي وكأنني أسافر وأحلق في عالم المعرفة والمعلومات اللامتناهية، ولا عجب فهو دكتور متخصص في مادة الجغرافيا كعلم من العلوم الحقة بل هي أحق العلوم كما لقننا في مادته الديموغرافيا تحديدا والاجتماعيات تعميما وهي الشعبة الأكثر تثقيفا لصاحبها ولمن يرشف من علمها، فمن خلالها يعرف الطالب الماضي والحاضر وقد يستقرئ المستقبل أو يتنبأ به من خلال الماضي كما فعل بالضبط ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر حين نظر للتاريخ نظرة مختلفة عن سابقيه، فاعتبره علما لا يقوم فقط على الرواية والثقة المطلقة فيما يقوله الرواة بل هو علم يعتمد على الشرح والتحقيق والتحليل فهذا ما جاء في مقدمته الخلدونية الشهيرة.

فنفس ما قام به الأستاذ جيدة محمد في إحدى حصصه، حين تنبأ لنا بفوز إمانويل ماكرون (Emmanuel Macron) في الانتخابات الرئاسية الفرنسية، فبعد تحليل مستفيض كأنه أستاذ للعلوم السياسية، وبعد أن حلل لنا الانتخابات الفرنسية وكون المرشحين بالمقابل لماكرون هم

1- د. محمد جيدة: أستاذ شعبة الجغرافيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل، جامعة عبد المالك السعدي.

مرشحوا اليمين المتطرف الرافض للمهاجرين، وبما أن سياسة فرنسا الديموغرافية تنحو إلى تشجيع الهجرة فإن الفوز سيكون من نصيب المرشح (إمانويل ماكرون)، وفعلا كان ذاك بعد إعلان النتائج النهائية للانتخابات الرئاسية الفرنسية سنة 2017.

محاضراته أيضا يسودها الصمت، وقد يفقد أستاذنا السيطرة على أعصابه إذا بالغ أحد الطلبة في التشويش عليه، يطالبنا بعدم الكتابة والاكتفاء بالانتباه والاستماع فقط. وفعلا فالطالب الجالس أمام الدكتور محمد جيدة أثناء إلقائه لمحاضراته يكتفي بشرحه ويمكن أن يكتب في امتحانه مستندا لما سمعه من الأستاذ وهي نفس الخصلة التي يتمتع بها الدكتور تمحري عبد الرحيم، فهما معا يلقنان المعلومة ببساطة وسلاسة وذلك بتكرارها عدة مرات بصيغ مختلفة.

وحين تقترب فترة الامتحانات فإنه يعرض ما شرحه لنا طيلة الفصل على شكل فيلم وثائقي لتفعيل كل شروحاته السابقة باستفاضة وتطعيمه بشتى الوسائل كالإحالة على مشاهدة أفلام سينمائية مهمة تؤرخ للفترة المدروسة بدقة. إنه عاشق باريس مدينة الجن والملائكة كما قال عنها طه حسين[1]، عشق لا يخفيه.

يحب تدريس طلبة شعبة السوسيولوجيا، هذا ما ردده علينا مرارا للحس النقدي الذي يميز الطلبة السوسيولوجيين وقدرتهم عل التحليل. ويعتبر هذا الأستاذ من أنشط الأساتذة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل، فهو من يقوم برحلات تدريسية ميدانية لطلبته لعدة مناطق شمالية كمنطقة بليونش الساحرة المطلة على إسبانيا أو قاب قوسين

1- طه حسين (1889-1973) أديب وناقد مصري، درس علم الاجتماع على يد "إميل دوركايم" في جامعة باريس، لقب بأديب الأدب العربي، مبدع السيرة الذاتية "الأيام" سنة 1929، زوجته "سوزان بريسو" الفرنسية السويسرية التي ساعدته على الاطلاع أكثر فأكثر بالفرنسية واللاتينية، فتمكن من الثقافة الغربية، كان لهذه السيدة عظيم الأثر في حياته. فقامت له بدور القارئ. قال عنها: "منذ أن سمع صوتها لم يعرف قلبه الألم".

منها وكأنهما أرض واحدة شقتهما قليل من المياه، فأصبحت عبارة عن أرضين ولغتين وثقافتين مختلفتين كل الاختلاف، وكأن انشقاق الأرض بحركات تكتونية وانجراف القارات هو الذي طرح المرأة الميتة أو (موخيرا مويرطي) (La mujer Muerta)[1] شاهدة ملامح جسدها التضاريسي على هذا الانقسام والانشطار لأرض واحدة تتطلع لها قلوب وآمال وأحلام الشباب ما بين الجذب والطرد على ضفاف قليل المياه هذا الذي شق قلوب وآمال وأحلام الشباب بدل أن يضمدها وينزل عليها الرحمة والسكينة، وقليل المياه هذا الذي يقدم أجساد الشباب بكل عنفوانها وقوتها وأحلامها على طبق مجاني بدون ثمن مهدى لكائنات المياه القليلة هاته الفاصلة بين الأرض الواحدة. فأحيانا يسافر الدكتور جيدة وطلبته بعيدا عن المناطق الشمالية، فيذهب وإياهم إلى وليلي الشامخة آثارها رغم جميع ضروب الزمن، فصمود قوسها كركلا وفسيفسائها الأزرق الجميل الذي لازال براقا كأي معدن أو حجر أصيل يثبت عجز الزمن أمام إبداعات الإنسان وذكائه.

يجول الأستاذ جيدة بعقولنا في الكثير من بقاع العالم ويسافر بنا بشروحاته المستفيضة عن بعض المناطق وكأننا نراها بأم أعيننا في تلك اللحظة. كنت أشك في أنه زار كل تلك المناطق التي يتحدث لنا عنها، وما ذلك كله إلا إبداع ومهارة في توصيل المعلومة بحبكة شديدة من طرف أستاذ متمرس في مهنة التعليم لمدة تفوق الثلاثين سنة.

1- La mujer muerta: أو المرأة الميتة، هكذا يسميها الإسبان، وهي قرية بليونش تقع شمال المغرب تحديدا على بعد سبع كيلومترات غرب مدينة سبتة، وتطل على مضيق جبل طارق، هي منطقة ذات جمال غير عادي ولها تاريخ عريق، فقد قال عنها القاضي عياض أنها تحفة البر والبحر، وتتميز المنطقة بمنظر يسلب الألباب.
عندما ترى أعلى بليونش جبل المرأة الميتة، وكأنها امرأة ملقاة على ظهرها، تعتبر قرية «بليونش» قرية فريدة من نوعها في العالم حيث أنها مقسمة بين دولتين.

أستغرب أحيانا أنه من أجل بعض الدروس في التنمية البشرية نجد بعضهم يستشهدون غالبا بأشخاص كمثل أعلى في التحدي وفي العطاء رغم الإعاقة، بالطموح وتحدى الذات والجسد مقابل العقل والروح والفكر، وإعطاء النموذج بالإنجليزي ستيفن هاوكينغ Stephen William[1] Hawking (1942-2018)كمثال لكل ذلك التحدي والقوة رغم إعاقته الجسدية. وأتساءل أين هي وسائل إعلامنا من أشخاص ينتمون لوطننا هم أكبر مثال على التحدي والعطاء رغم إعاقتهم الجسدية مثل الدكتور محمد جيدة[2]، وكل تلك الطاقة الايجابية الكبيرة التي يمنحها لطلبته حين يرونه داخلا للمدرج من أجل تنوير عقولهم والعبور بمعيته والأساتذة الآخرين إلى مصاف الباحثين والدارسين والطالبين للعلم والمعرفة.

خلال فترة دراستنا عنده مادة الديموغرافيا قالت لي إحدى الطالبات، إنني أحيانا أكون متكاسلة وأنهض متثاقلة للذهاب للكلية لكن بمجرد تذكري أن الحصة عند الأستاذ جيدة أقفز من فراشي منطلقة بكل حيوية ونشاط خجلة من تكاسلي الغير مبرر، وأنا بكامل قواي الجسدية والعقلية أمام دكتور بحجمه لم تثنه الإعاقة عن أداء دوره أو التأخر يوما عن أية حصة.

1- ستيفن هوكينغ Stephen Hawking: هو العالم البريطاني ومن أبرز علماء الفيزياء النظرية وعلم الكون على مستوى العالم، أصيب بمرض العصب الحركي وهو في سن 21 سنة، تنبأ له الأطباء بسنتين فقط كبقية في عمره وعاش حتى سن 75 سنة، من أبرز اكتشافاته ما يتعلق بالثقوب السوداء التي أثبت أنها تصدر إشعاعا على عكس كل النظريات المطروحة وضرورة التعامل معها قبل أن تتفاقم الأمور وتشكل خطرا على الحضارة الإنسانية، وعرف العالم البريطاني بمواقفه من قضايا علمية وتكنولوجية عديدة، فقد أعرب في 2017 عن مخاوفه من أن يحل الذكاء الاصطناعي محل البشر، وقال بأن نتيجة ذلك التطور المحتمل هو أنه سيكون هناك شكل جديد للحياة.
من مؤلفاته "تاريخ موجز للزمن" سنة 1988 وكان من أفضل الكتب مبيعا، كان محظوظا بانتمائه لعائلة متميزة وخصوصا زوجته جين وايلد التي تزوجها عام 1965 وهو يعتبر قدوة في التحدي والصبر ومقاومة المرض.

2- د. جيدة محمد: أستاذ تاريخ وجغرافية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل / تطوان جامعة عبد المالك السعدي.

هو جد متعاطف مع الطلبة، له ذاكرة قوية جدا إلى درجة أنه قد يتذكر عدد حصص غياب بعض الطلبة عن محاضراته، فمرة لاحظ غيابي لحصتين. يؤكد علينا كطلبة أن كل من حضر في اختبار مادته واكتفى بكتابة اسمه فقط ولم يكتب أي حرف في ورقة التحرير فهذا يخول له الحصول على نقطة تعطيه الفرصة الثانية لاجتياز اختبار مادة الديموغرافيا في الدورة الاستدراكية، لأنه قد تحدث ظروف لا تمكن الطالب من التحضير والاستعداد لاجتياز الاختبار، وهكذا فهو يفرق بين الطالب الذي على الأقل حضر خلال الامتحان وتكلف عناء الحضور عن ذاك الذي لم يحضر أصلا وتغيب عن الاختبارات، ويكافئه بنقطة تفضيلية لا تقل عن ثلاث نقط، وهي النقطة المخولة للاستفادة من الدورة الاستدراكية.

ما أسرده عن هؤلاء الأساتذة ليس فيه نوع من الرياء أو المحاباة أو المغالاة أو النظرة إليهم بملائكية، لكن هو نقل حقيقي لحياة طلابية عشتها بكل ما فيها من حقائق ومن متعة وتعب وإرهاق أثناء التحضير للاختبارات، وفي قطع المسافات الطوال ذهابا وأفولا من طنجة إلى مرتيل. وحتى الغضب أحيانا وذلك حين هاجمتني إحدى الطالبات يوما وجعلتني أرتجف من شدة الحنق، وأنا أقوم بطبع بعض الدروس منتظرة دوري حين رمقت في أوراقي شعبة "علم الاجتماع" وبدون سابق إنذار، ولا أعرف لما خاطبتني بعصبية قائلة: «ألم يرق لك دراسة علم الاجتماع حتى بلوغك هاته السن؟؟؟» وأردفت مخاطبة الفتاة التي تعمل بالمطبعة المتواجدة داخل الجامعة: «فلتنصرف من هنا ولتطبع خارج الكلية»، لم أستوعب أول الأمر أنها توجه لي الخطاب! حتى سمعت الفتاة التي تطبع، تعتذر لي وتحاول تهدئتها، فاستغربت جدا من تصرفها هذا، لأنها هي أيضا ليست بسن الطلبة الصغار بل ربما هي تقاربني سنا، تساءلت «لماذا خاطبتني بذلك الشكل؟ هل تعرفني؟ هل هناك من يهينها بشدة

وبقسوة عن دراستها الجامعية في سنها ذاك، فعملت الإسقاط علي حين لاحظت أن من تقف بجانبها تقاربها سنها؟ هل سلطها أحد علي وتريد أن تثنيني عن دراستي؟ وأرادت أن تبعدني وتكرهني في ملاذي الأوحد الذي وجدت أخيرا!!؟».

لم أفهم ذاك اليوم البئيس ما وقع! كل ما أذكره أن الفتاة بالمطبعة ضحكت كثيرا، وحكت للفتاة التي تشتغل بمقهى الكلية أو ما يسمى بالمقصف الذي هو فضاء راحة والتقاء للطلبة، لتخاطبني غاضبة «لما لم تثوري على حقك؟ واستطردت: لو كنت حضرت للواقعة لأخذت بقصاصك منها! لقد وجدتك جد طيبة!!». فكيف لي أن أصعد الموقف وأنا بالكلية وأمام الطلبة؟ كيف سأنزل إلى مستوى الشجار والخصام والتوثر وأنا داخل الحرم الجامعي؟ وهنا استحضرت أنني أستاذة ولست طالبة مع أني ألغي الدنيا وأنا بالحرم الجامعي، ألغي مهنتي وألغي وضعي الاجتماعي، وألغي رزانتي وألغي سني وألغي كل الكوادر التي وضعت فيها ووجدت نفسي بداخلها.

فالحرم الجامعي هو ملاذي وراحتي النفسية واستمتاعي بما أدرس، وهو فرصة ضحكي مع الطالبات وجلوسي معهن على العشب وارتشاف القهوة جماعة بمقصف الكلية الذي ينقصه الكثير من التنظيم والنظافة، لكنها تبقى قهوتي اللذيذة والحلوة رغم مرارتها بدون سكر لكنني أستمتع بها وأتلذذ برشفها أيما تلذذ. بالإضافة إلى ممارسة كل ما يحلو لي من حياة الطلبة. مع تطبيقي لحلول اكتشفتها خلال مرضي ولحاجتي الملحة إليها، كالاسترخاء لمدة طويلة دون أن أفعل أي شيء فقط أتأمل في لا شيء، أو سماعي لموسيقى هادئة قبل النوم بدون كلمات اكتشفتها عبر الأنترنيت تساعد على الاسترخاء والنوم الذي يجافي عيناي، وأحيانا أعطر وسادتي قبل النوم بعطر أحبه أو آخذ حماما والماء

ينساب فوق رأسي لمدة ليست بالقصيرة دون حركة فينهمر خلالها الماء على جسدي لأرتاح، وأحيانا أقوم بهذا حتى قبل ذهابي للجامعة لتأتي مثل هاته الطالبة لتعكر مزاجي! لكني توصلت ذاك اليوم إلى أن هناك من يعانون أكثر مني على شاكلتها!

أما من أشبهه بالقطار في استقامته سواء فيزيولوجيا أو حتى في طريقة تدريسه، فهو لا ينحرف شمالا ولا يمينا ولا يمكن لحصته أن يشوبها أي نوع من المفاجآت أو المشادات مع الطلبة أو أي توثر أو انفعالا إلا لماما، فأول محاضرة عنده تشبه آخر محاضرة، حصصه إلقائية بامتياز، إنه " الدكتور الشرايمي محمد"[1] والذي ندرس عنده أيضا مدة الثلاث سنوات وحتى حصولنا على الإجازة. لا يمكن للطلبة أن يقوموا عنده بأي مداخلة إلا في آخر الحصة حين يقول لنا: هل هناك من تساؤل؟ يستعمل السبورة بشكل كبير في كل حصة أكثر من باقي الأساتذة الآخرين، وهذا كثيرا ما يساعدنا على كتابة أسماء الباحثين والعلماء بكامل الدقة على خلاف المواد الأخرى التي تجد كل طالب وقد كتب اسم عالم على سجيته وحسب ما أملته عليه أذنيه. خطه صغير جدا لا يكاد يرى خصوصا لمن لم يتمكن من الجلوس في الصفوف الأمامية، صوته ليس بالمرتفع وليس قويا لكنه يكرر كلامه عدة مرات من خلال

1- د. محمد الشرايمي: أستاذ شعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل/ تطوان جامعة عبد المالك السعدي. موضوع أطروحته للدكتوراه: "آليات تنظيم واشتغال المنظمات غير الحكومية بالمغرب، حالة تنظيمين جمعويين" بكلية الآداب ظهر المهراز، فاس سنة 2006. متوفرة بمكتبة "بآل سعود" - بالدار البيضاء. من مؤلفاته:
- "تنمية مجتمع الصحراء بين سياسة الدولة وامكانات المجتمع المحلي" سنة 2009.
- "الخدمة الاجتماعية، بحث ميداني في مهنة المساعدة الاجتماعية بالمغرب" دار نشر طوب بريس سنة 2013.
- "المدن الصحراوية، النشأة والتطور"، طوب بريس سنة 2015.
- "الصحراء والمجال والإنسان" سنة 2017.
- "ومعلمة المغرب" الجزء 26 / 27 pdf في موسوعة، سنة 2016 متوفر بمكتبة آل سعود بالدار البيضاء.

الكتابة على السبورة أو الشرح مما يمكننا من الفهم بسهولة، فهو لا يستعمل مكبر الصوت فمن النادر أن يجلس أثناء إلقاء محاضراته، نكتب عنده كثيرا. يبدأ حصته بالتذكير لما درسه في الحصة السابقة، حصصه كلها مستنسخة ومنظمة لا استثناء فيها، لا كلمة في غير الدرس كأنه روبوت (Un robot)، لا يتكلم لنا عن أي شيء خارج المحاضرة، حتى الاختبارات لا يتكلم لنا عنها كباقي الأساتذة حين يحل وقتها، أسئلته مركبة ومطولة أيضا، تعجبني كثيرا فهي لا تعتمد على الحفظ نهائيا كجلّ أسئلة الأساتذة الآخرين بشعبة السوسيولوجيا.

يبدأ أول محاضرة كآخر محاضرة له، حين يشاغب أحد الطلبة أحيانا أو إذا عم الضجيج بالمدرج فهو يلتزم الصمت حتى يعم الهدوء من جديد، فيكمل إلقاء محاضراته دون أن ينبس بأية كلمة للطلبة، لا منزعجا ولا غاضبا ولا مزمجرا ولا معاتبا أو لائما، فلا يبدو على محياه أي انفعال! وإذا فاقت الفوضى حدها عما كانت عليه في الأول فإنه يحمل أغراضه ويخرج دون أن ينطق بأدنى كلمة كعادته.

استغرب لهدوء بعض ممتهني التدريس وتحكمهم في انفعالاتهم وأغبطهم عليه، وعلى قدرتهم الفريدة على ضبط أعصابهم وكبح جماحها! استغرب كيف يستطيعون ذلك؟ أم السبب أنهم أساتذة جامعيون؟ كيف لبعضهم أن يتسم بكل هذا الهدوء؟ بعد سنين طوال من العطاء في هذه المهنة؟

بمجرد دخولي أول حصة عند الأستاذ الشرايمي استشفيت من سحنته أنه صحراوي رغم عدم وضوح ذلك على ملامحه الدقيقة وعلى لون بشرته ولون عينيه الغير الداكن، على خلاف سحنة أغلب أهل الصحراء الذين يمتازون بملامح بارزة وواضحة ولون أدكن، فربما هي دماؤه المختلطة بغير أهل الصحراء. أم هو أحد أجداده الذي تمرد على

بنات الوسط الصحراوي واستقدم إليه وفرض إحدى الشقراوات على هذا الوسط الرملي، فكان هذا هو سر اختلاط دمائه؟ أم ترى هذا التمرد له صاحبة وليس صاحب؟، أم هي إحدى بنات الصحراء التي تمردت فقذفت بلحافها الأسود وانتفضت وفكت ضفائرها وأزالت حناءها وفتتها عن يديها وعن أناملها، واختارت وربما أحبت فقبلت الزواج بأبيض السحنة أو أشقر، فاختلطت دماؤه رغم تأصل سحنته الصحراوية وعمقها وتجذرها الواضح عليه والمتجلية في أغلب كتاباته الصحراوية ومنها كتابه الغني بأدق التفاصيل عن المدن الصحراوية "المدن الصحراوية: النشأة والتطور"[1]، وهذه الطبعة الصحراوية متجلية عليه أكدتها لي كتاباته العديدة حول الأقاليم الصحراوية فيما بعد. فحين أردت اقتناء بعض كتبه من كشك خارج بناية الكلية كلفتني ثمنا أقل مما هو مكتوب على ظهر الكتاب وهو ثمن خاص بالطلبة من أجل تخفيف الأعباء الدراسية عليهم. ينصح به كأستاذ مشرف على بحوث الإجازة من طرف الطلبة،فهو من يلقننا المبادئ الستة عشر لدراسة أي ظاهرة اجتماعية في مادة "المناهج الكمية" كما يدرسنا غيرها من المواد. كم تمنيت لو كانت البحوث مجزأة بشكل من الأشكال حتى يشرف على كل جزء من بحثي كل هؤلاء الدكاترة الأجلاء الذين يدرسونني حتى أستفيد من خبراتهم العلمية ومن إبداعاتهم الفكرية. فالعروض التي حضرتها في حصص الأستاذ الشريمي والتي قام بها مجموعة من الطلبة يطبعها الشكل الاحترافي، فهو يطالب بالبحث الميداني الموثق بالإضافة إلى البحث النظري، فتكون عنده العروض شبيهة بالفيلم الوثائقي الذي يجمع ما بين النظري وما قام بتصويره الطلبة أثناء بحثهم الميداني، وهذا الأستاذ أيضا يساعد الطلبة على تهييء الاستمارات ويدربهم عليها،

1- د. محمد الشرايمي: المدن الصحراوية، النشأة والتطور. طباعة طوب بريس - الرباط، 2015.

فتكون العروض التي يقوم بها الطلبة في محاور مادته جد متميزة.

يمتاز بهذا الهدوء أيضا الأستاذ الزكريتي ويضيف عليه ابتسامة هادئة تحسسنا بالطمأنينة في التعامل معه! كان يكرر لنا منذ الفصل الثالث أننا طلبته المتميزون جدا وأننا نمتاز بالاجتهاد والعطاء، ويرانا على أننا أفضل فوج درسه خلال عمله بالجامعة، ويختم كلامه الجميل بأنه فخور جدا بنا...! وأننا أهل للنقاش والحوار. كنت أفرح جدا بكلامه وأكيد أنه شعور باقي الزملاء، وأحس بكثير من الفخر، وأتعجب من نفسي لذلك! فكيف لهذا الثناء من أستاذنا ليشعرني بالزهو والفخر والفرح؟ أنا الأستاذة أيضا والتي تتعامل بنفس المنطق مع تلامذتها، فكيف لهذا التشجيع أن يحسسني بكل هذا الفخر والرضى عن نفسي؟ خصوصا وأنني أنجح كل فصل بنقطة أعلى من سابقتها ودوما ما أحصل على امتياز، ولمرتين متتاليتين حصلت على ثاني نقطة في مجموعتنا بشعبة علم الاجتماع مع أن التنافس بيننا على أشده.

كيف لهذا الرضى كله عن النفس أن يعود لي من جديد داخل الحرم الجامعي وقد افتقدته في حياتي من قبل أن تطأ قدمي الجامعة؟ كيف لهذا التعليم الذي يمارس علي أن يعيد لي الثقة بنفسي وأن يحسسني بالسعادة؟ فهو التعليم نفسه -الذي أمارسه- والذي هربت منه وأصبح امتهانه يعذبني ويبكيني ويفقدني صحتي ويفقدني السيطرة على أعصابي؟ هل هو منطق "داويها بالتي هي الداء"!؟

حين أعدت اختبار مادة "أسس علم الاجتماع" في الفصل الأول، نتيجة النقطة/ العقاب الذي عاقبنا إياه الأستاذ بوطالب والذي مرده خطئي في الفوج الذي أنتمي إليه! وبعد مرور مدة على اختبار الدور الاستدراكية، أخبرني الطلبة أنه يمكننا الحصول على النقطة من طرف أي أستاذ مباشرة قبل إعلان النتائج على موقع الكلية، لأن إعلانها يأخذ

مدة طويلة أكثر من الوقت الذي تعلن فيه نتائج الدورة العادية. فتوجهت بعد انتهاء المحاضرة عند الأستاذ الزكريتي وطلبت منه إخباري بالنقطة التي حصلت عليها في مادته، وكنت برفقة مجموعة من الطلبة، فابتسم كعادته وحكى لهم ما وقع لي ضاحكا ثم قال لي: «إني نسيت بالضبط كم هي النقطة التي حصلت عليها، وليس معي الآن لائحة النقط» وأضاف: «لكنني أتذكر أنها نقطة جيدة!»، ورغم جوابه هذا لي ألححت عليه في طلبي بأن يحدد لي نقطتي بالضبط! وبعد أن لاحظ إلحاحي، استغرب فربما بدوت له بهذا الإلحاح كطالبة صغيرة أو كالطفلة التي تتشوق لنقطة أستاذها وتقييمه لها! فابتسم أكثر مردفا: «هل هذه النقطة تعني لك السعادة؟» فابتسمت وفهمت من تلميحه لي بتعليقه هذا على أنني بالغت وألححت في طلبي كثيرا! فانصرفت وداخلي يردد: «إنك لا تعلم يا أستاذي أنها -أي النقطة -تمثل لي السعادة فعلا!!».

رغم أنني لست بحاجة لتلك النقطة لا في الحصول على شهادة الإجازة بامتياز ولا من أجل الحصول على وظيفة ولا من أجل الحصول على راتب شهري أو لأي سبب آخر من الأسباب التي يبتغيها الطلبة / الشباب، فحاجتي إليها أكبر وأعمق إنها السعادة!!.

سنحت لي الفرصة لألقي عرضا عند الأستاذ الزكريتي عن "مدرسة فرانكفورت" وثقافة الاستهلاك بمفردي وليس عملا مشتركا كما هي غالبية العروض، فأشاد به كما هي عادته حين يعجب بأحدها، وكما يشجعنا دائما ويسهب في مدحنا والثناء على فوجنا حين يقول لنا كلماته الجميلة: «كما عهدت فيكم الجد والعمل، فأنتم أهل للنقاش والاحترام» وأحيانا يقول : «أجدد شكري لكم على هذا المستوى من النضج» وغيرها من التعابير الزكريتية الراقية والرقيقة التي تثلج صدورنا كطلبة، وتزيدنا إقبالا على البحث والاجتهاد وإنجاز العروض، كما أنه

وبكل تواضع أهل المعرفة يشجعنا أيام الاختبارات على البحث والتنقيب عن معلومات جديدة غير تلك التي ذكرها أثناء محاضراته، فيقول لنا: أنه يتعلم منا، فهو يحب الطالب الباحث الذي يبهره بأجوبته وهو أيضا الأستاذ المحب للاختصار، لا يعطي النقطة على المقدمات والخواتم ولا يجد أية ضرورة إليهما، بل يحبذ من الطالب الشروع مباشرة في الجواب عن سؤال الامتحان.

تواضعه أمام الطلبة وثناءه الدائم علينا لا يزيدني إلا فخرا وحماسا وانحناء أمام أساتذتي في شعبة السوسيولوجيا، فقد نفخوا في روحي الحياة والرغبة في الدراسة.

كل ما سردته كنت أتكلم عن فطاحلة السوسيولوجيا من دكاترة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمرتيل، لكني لم أتطرق للعنصر النسوي في ميدان السوسيولوجيا! وكم هن الإناث إلى جانب الذكور في هذه الشعبة؟ أيقتصر عشق هذا العلم المثير على الرجال دون النساء؟ ألا تأخذ النساء غمار هذا الحب؟ كما يقول بذلك عنها -أي السوسيولوجيا- عبد الرحيم العطري: «إن السوسيولوجيا كما الحب، لا وطن لها، وأنها مجهود إنساني يتوجب تداوله أو التفكير فيه بصيغة الجمع لا المفرد». بل إن السوسيولوجيا كما الحب، لا وطن لها، ولا جنس محدد حكر على هذا الحب وله المشروعية وحده لممارسته بل هو عشق يذوب فيه كلا الجنسين.

فلماذا نجد أن كل مؤسسي السوسيولوجيا دون استثناء رجال؟ فهل لأن دور المرأة في غالب الأزمنة هو خدمة ذلك الرجل، ليبدع؟ أم دورها لا يتعدى توفيرها لكل سبل الراحة له!؟ ليتفتق ذهنه وعقله عن كل هذه الإبداعات الذكورية التي أضافت للبشرية الكثير؟ أم أن دور المرأة من قبل مقتصر فقط على الإنجاب والتربية والاهتمام بالبيت، بينما الرجل هو

الذي يعمل ومسموح له بذلك بل من حقه أن يبحث ويكتشف ويخترع هو لوحده فقط؟

هل لولا وجود "سوزان بريسو" أكنا سنعرف طه حسين؟ الذي قال في حقها: «منذ أن سمع صوتها لم يعرف الألم قلبه»، ولولا "جين وايلد" هل سيكون ستيفن هاوكينغ؟ إذ هي التي شكلت كل شيء في حياته، ولولا "ميلقا ماريكا" هل سيكون إنشتاين؟ وغيرهم كثير.

فالمرأة ليست وراء عظمة الرجل فحسب، بل هي من تصنعه، فالمرأة هي التي تحمله في أحشائها، وهي التي تخرجه للوجود، وهي التي تربيه، وتسهر على تنشئته اجتماعيا، ثم تصنعه إن هي تزوجته وإن توفرت لديه موهبة ربانية، فهي توضحها وتبذل قصارى جهدها وكل ما في وسعها لصقلها، ومساعدته لإظهارها وخلق الأجواء والظروف المناسبة لتتفتق موهبته. فقلة هم المبدعون الذين لا نسمع عن وجود امرأة في حياتهم "كاميل شارتيه" المعروف بلقب "آلان"، أو أجست كونت الذي لم يتزوج وأحب في آخر حياته "كلويتلد دوفو"، أم هن نساء حاضرات في حياتهم -حبيبات أو أمهات- لم ينصفهم التاريخ حتى بذكر أسمائهن؟؟؟ أكيد أنهن بقين مضمرات متخفيات وراء كواليس ذكورية مسدلة عليهن.

حضور نون النسوة لا يمثل الكثير في كل الميادين بدون استثناء، فلا توجد أكذوبة المناصفة بين الذكور والإناث ولا يمكن أن تكون، فتظل عبارة المناصفة في المناصب وعبر المنابر حبرا على ورق وغير مفعلة رغم المصادقة على تفعيلها، فأصحاب القرار هم رجال، والطبيعة البشرية تفرض ميل كل جنس لصنفه، ثم لحاجة الرجل لامرأة يجعلها تابعة له وفي البيت لخدمته، ولاختيارها هي أيضا وعن طواعية لهذا الدور عن حب لتحقق أمومتها، ومن أجل الزواج من رجل تحقق وإياه جوا أسريا وأحلاما رضعتها من صدر أمها أول ما فتحت عينيها على هذه الدنيا ومنذ صرختها الأولى.

هما عبق الأنوثة في شعبة "السوسيولوجيا" بمارتيل المادة الصادمة والتي كان تدريسها في وقت ما محظورا وتعلمها مرفوضا، فهما الناشزتان عن هذا الطرح، الاثنتان فقط لا ثالثة لهما، إحداهما وهي الزهرة الخمليشي[1] زوجة الدكتور بوطالب، ذات الصوت الرفيع الذي لا يكاد يصل إلى مسامعنا وهي تلقي محاضراتها، خصوصا إذا غاب عنها مكبر الصوت في المدرج، وهي الهادئة التي وراء هدوئها قوة وصرامة تبدو جلية في عينيها وأحيانا في كلامها الصارم خصوصا أثناء حثها للطلبة على الجدية والعمل، تبدو حنكتها السوسيولوجية بوضوح متجلية في كتاباتها النسوية معبرة عن واقع وكواليس مظلمة يتكرس فيها باستمرار هضم حقوق المرأة وظلمها السافر في المعامل في أطروحتها، وأيضا حين تفضح واقع النساء الحمالات "بسبتة" على حدود شمال المغرب، أو حين تقتحم طابوهات وتكشف حقائق حول الأطفال المتخلى عنهم في مجتمع يحرم الإجهاض، ويغض الطرف على آلاف أو ملايين الأطفال الذين يرمون في قمامات الأزبال وهم أحياء أو في الأماكن المظلمة.

تدرسنا هي أيضا مدة ثلاث سنوات لنيل شهادة الإجازة، تدرسنا خلالها العديد من المواد "كالمناهج الكيفية" و"الفقر والهشاشة"

1- د. الزهرة الخمليشي: أستاذة في شعبة "علم الاجتماع" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل / تطوان، جامعة عبد المالك السعدي.

موضوع أطروحتها للدكتوراه: "المرأة والعمل والثقافة بالمغرب، عاملات مقاولات صناعة الملابس الجاهزة بطنجة نموذجا" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز بفاس سنة 2005. وهي عضوة مؤسسة لمجموعة البحث: الديناميات الاجتماعية وعلاقات السلطة بتطوان.

من مؤلفاتها: "الحدود في شمال المغرب، آمال وآلام النساء الحمالات" مطبعة سليكي أخوين، سنة 2017. وكتاب: "الأطفال في وضعية التخلي: الوصم يعيق الاندماج"، مطبعة سليكي أخوين سنة 2018. كتاب جماعي مشترك: "تأنيث الهجرة والعنف ضد النساء على الطريق"، دار نشر أوروبية. كتاب: "البحث الميداني، مراحله خطواته وتقنياته" مطبعة سليكي أخوين، سنة 2018. لها مقالة: "الآثار الاجتماعية للإدمان على المخدرات" 2017. ومقالة: "نساء الكيف من المستفيد من عمالة صنهاجة السراير" صنهاجة مجلة تدغين.

وغيرهما، تعطي الفرصة لكل طالب متدخل، تشجعنا على المشاركة في المحاضرة على سجيتنا مهما قاطعناها، لها صدر رحب في تقبل تساؤلات جميع الطلبة والرد عليها باستفاضة وصبر كبيرين، لم أشهدها غاضبة إلا مرة واحدة، نبهتنا وطالبتنا بالهدوء لأكثر من مرة، ثم بعدها بدأت بعض الطالبات بالانصراف بعد مدة قصيرة من شروعها في إلقاء محاضرتها بحجة الصلاة بعد سماعهن الآذان، محدثات الفوضى. هنا فاض الكأس بها ووصل السيل الزبى فحملت أغراضها وخرجت من المدرج غاضبة، هرولت خلفها راجية إياها بأن تعود من أجل متابعة المحاضرة إلا أنها رفضت واعتذرت لي.

يقول الأستاذ بوطالب عن المحاضرة أنها صلاة، يعني أن ما يلزم الصلاة من طقوس وهدوء وآداب يلزم أيضا المحاضرة، فهما معا المحاضرة والصلاة سيان لديه. أما أريج السوسيولوجبا الثانية فهي الدكتورة "كريمة الوزاني"[1] الحاضنة لكل الطلبة، الهادئة والمؤدبة جدا من خلال تعاملها، لم أذكر لها يوما غضبة أو عتابا على أحد، تتلقى هي أيضا كل تدخلات الطلبة وتساؤلاتهم بصدر رحب وبابتسامة ساحرة مثل ابتسامة الأستاذة الخمليشي[2] أيضا، وأحيانا تتقبل حتى مستملحاتهم، فأحد الطلبة وأثناء إلقائه للعروض يخاطبنا عندها دوما نحن الطلبة بصوته

1- د. كريمة الوزاني: أستاذة بشعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل / تطوان، جامعة عبد المالك السعدي.
موضوع أطروحة نيل شهادة الدكتوراه: "ثقافة النوع بالمغرب، مقاربة مفهومية الحكامة والمجتمع المدني" سنة 2016
من مؤلفاتها: "دراسة ميدانية للجمعيات النسائية التنموية" سنة 2018.
2- د. الزهرة الخمليشي: نفس الإحالة السابقة، من كتبها الصادرة "عمل النساء المأجور، التبعية الاقتصادية ورهانات التحرر في المجتمع المغربي"، منشورات بالمجلة الدولية "مدارات اجتماعية"، ثم الأعمال الجماعية في علم الاجتماع، العدد الأول: صيف 2018. ثم "حقوق نساء المغرب بين النص القانوني وإكراهات التطبيق، العدد 22 و30، مجلة إضافات سنة 2015.

الجهوري بجملة: " يا معشر السوسويولوجيات ومعشر السوسيولوجيين"، كنا نبتسم وتبتسم هي أيضا معنا، وتتجاوز عن الكثير من قفشاتنا وشغبنا أحيانا.

محاضراتها تتسم بمشاركة العديد من الطلبة، فهي غير إلقائية بالمرة بل تدعمها بوسائل التكنولوجيا الحديثة (بجهاز العرض التفاعلي Data chow)، وهي حاليا بالإضافة إلى التدريس فإنها تقوم بمهمة منسقة شعبة السوسيولوجيا التي كان يتولاها قبلا الأستاذ الزكريتي. كما أن الأستاذة "كريمة الوزاني" هي من حظيت بشرف تأطيرها لبحثي "الاحتراق المهني" أو "البورناوت".

أحس بها وكأنها تضمنا إليها جميعا نحن طلبة السوسيولوجيا وتحتوينا وتستمع لكل شكاوينا، فبعد استماعها للطلبة، وبعد صمت وجيز كعادتها عند استماعها لأحدنا وبنظرة ثاقبة وتريث ذكي منها، تجيب بكل هدوء كل منا عن تساؤله أو مطلبه بدون تسرع.

أدبها الشديد مستمد أكيد من امتهانها للتدريس، وخصوصا لانتمائها هي أيضا لأسرة جل أفرادها يمارسون هذه المهنة، فهي أيضا ابنة رجل تعليم، هذا ما سمعته منها يوما ونحن نناقش موضوع بحثي "الاحتراق المهني"، وبكل تواضع وأدب فهي لا تجلس وراء المكتب حسب المألوف حين تستقبل الطلبة الذين تشرف على أبحاثهم، بل تجلس أمام المكتب، ويقابلها كرسي آخر يجلس عليه الطالب الذي يريد محاورتها حول موضوع بحثه، فهي تجلس بمنتهى التواضع، هي الأنيقة والرشيقة، فقوامها يذكرني بقوامي الذي كان أكثر رشاقة منه الآن، وكنت أتمتع بمثل قوامها طيلة طفولتي وشبابي، ودائما أحس بخفة جسمي التي افتقدت بعضا منها.

فكل من درسونا مواد شعبة السوسيولوجيا خلال سنواتها الثلاث، لا حدود بينهم وبين الطلبة، ولا فواصل أو أسوار أو جدران أو أبراج عالية، بل هناك احتواء كبير للطلبة من طرف الأساتذة السوسيولوجيين مع دعمهم المطلق للطلبة بجميع المساعدات الممكنة.

تعودنا أن نسمع أن النساء الناجحات في دراستهن والفاعلات الجمعويات ذميمات وفاشلات في حياتهن الخاصة، وغير مرغوب فيهن من طرف الرجال، وأغلبهن عوانس أو أرامل، وأنهن لو كن يحضين بأزواج أو لهن أبناء ينشغلن بهم لما انشغلن بالدفاع عن هموم الآخرين أو قضاياهم. وهذه الصفات القدحية هي ملصقات خاصة بالكثير من النساء المتعلمات اللواتي يتبوأن مراتب مجتمعية راقية أو مراتب مهنية عالية إلى جانب الرجال، فهو تكريس لنفس الأفكار المتوارثة لتطبيث عزيمة النساء عن العمل، وحتى يتقاعسن عن كل الأدوار الأخرى، إلا عن دور ربات البيوت، فعلى العكس من ذلك، فهذا بعيد كل البعد عن الصواب، وخير مثال على هذا الدكتورتين الزهرة الخمليشي وكريمة الوزاني في شعبة السوسيولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل فهن يفندن هذا الطرح، لما يتمتعن به من الجمال الواضح على محياهما، والذي بالتأكيد كان أخاذا في صباهن أكثر، وأكيد أن الكثير من القلوب تهافتت وانكسرت عليهن في شبابهن، وأيضا لندرة النساء الممتهنات لمهنة التدريس في الفترة التي عملتا فيها، وإقبال الرجال على الزواج بمن يمتهن هاته المهنة. فلهما سحر خاص في عينيهما الجميلتين اللتين تنطقان سحرا وذكاء.

إن للنساء بينهن كلام مستباح ومتداول، يفهمن بعضهن أكثر مما يفهمهم الرجال، وأحيانا قد يستبيح القلم هذا الكلام دون توقف، دون خجل منه في هكذا كتابات، فالقلم يخرج عن تحكمنا، يفقدنا السيطرة

على التوفيق بين ذكر ما بدواخلنا وأحكام المجتمع، وجماحه التي لا تكبح، إنه كالهو، له شهواته اللامحدودة في كتابة ما يروق له أثناء انسيابه على الورقة، إنه كالمستر هايد، قوة الشر التي كانت تحارب قوة الخير لدى الدكتور جيكل، وفي لحظات كثيرة أصبح المستر هايد هو المسيطر على الدكتور جيكل وهو المتحكم فيه رغم هدوء وتعقل ونضج وحكمة الدكتور جيكل ومقاومته اللامتناهية.

هكذا القلم أيضا، فإنه يخرج عن سيطرة حامله أحيانا، ولا يكترث لأية ضوابط اجتماعية، إنه يمتاز أحيانا بالفجور واللاانضباط، وتصبح الأنا / الكاتب، عاجزة عن التوفيق بين الهو/ القلم والأنا / حامله، والأنا الأعلى وهي كل الضوابط المرفوضة، اجتماعية كانت أم دينية أو أخلاقية، وهو ما يحدث بالضبط أثناء الكتابة، فهي لحظة تحرر بشري من كل القيود.

فلنقم ونوف الأساتذة التبجيلا...
فقد كادوا أن يكونوا رسلا

لقنونا ونحن صغار أن لا أحد على وجه هذه البسيطة يتمنى أن يراك أفضل منه سوى والديك، ولقناها لأبنائنا وتلاميذنا. والحال أنه ليس الوالدين فقط من يحبون ويتمنون أن يروا أبناءهم أفضل وأحسن وأرقى منهم وأن يصلوا إلى أعلى المراتب بل هناك الأساتذة أيضا الذين يحسون بكل الفخر وكل الزهو إذا وصل تلاميذتهم وطلبتهم لأعلى المراتب، وتجدهم لا يتوانون عن تقديم أية مساعدة لطلبتهم ولا يبخلون عنهم بشيء. ويحبون دوما أن يروا تلاميذهم وقد وصلوا لأعلى المراتب ولو كانت أفضل من مراتبهم هم أنفسهم.

بل تجد رجال التعليم يحثون التلاميذ طول الوقت ويحفزونهم على العمل وعدم تضييع الوقت، وعلى انتهاز الفرص للنجاح والمضي قدما، تماما كما ينصح الوالدان أبناءهم بذلك.

فيكفي هذا الإحساس من طرف أي معلم ومهما كانت ساديته أو قساوة عقوبته أو المستوى الذي يدرس من التعليم الأساسي إلى التعليم الجامعي - والذي لا يختلف عليه كثيرون - أن يشفع له عند كل من لقنه حرفا لينحني له احتراما وتقديرا لأنه يفخر ويعتز أيما اعتزاز إن وصل إلى علمه أن أحد تلامذته قد تقلد منصبا مهما، أو وصل لمراتب عليا من العلم والمعرفة. فهذا الإحساس يتقاسمه الوالدان والمدرسون فقط، وما دونهم لا يمكن أن يزرع فيه هذا الإحساس لا عند رجال الدين ولا رجالات السياسية ولا رجالات أي مجال آخر، مهما كانت دوافعهم

بريئة من أجل مصلحة الأفراد للمضي بهم قدما والرقي بهم إن في الدنيا أو الآخرة.

هو ذلك الحب المتبادل والاعتراف مدى الحياة الذي قد ينسج بين أستاذ وتلميذه ويبقى صامدا رغم تقلبات الزمن ورغم اختلاف الأجناس والألسن، هو ذلك الاعتراف الذي يكبر مع الإنسان مهما كبر ومهما علا شأنه فهو يحمله بين طياته وذكريات عمره التي لا تنسى والتي تترجم أحيانا إلى إهداء جميل من طالب اتجاه معلمه، فيبقى هذا الاعتراف صامدا عبر الزمن متواجدا بين طيات كتب عديدة يتجلى حين نتعرف على أساتذة يفصل بيننا وبينهم زمن طويل لكن طلبتهم يستحضرونهم ونتعرف عليهم عبر الصفحات الأولى في كتاباتهم كاعتراف جميل يجعلنا نتعرف على الأستاذ المرحوم الدكتور بوزيان بوشنفاتي رحمه الله عبر طالبته الأستاذة الزهرة الخمليشي حين خصصت إهداء صفحتها الأولى من كتابها «البحث الميداني: مراحله، خطواته وتقنياته»[1] له وإلى كل من علمها أبجديات البحث السوسيولوجي وإلى كل أستاذاتها وأساتذتها، وهو نفس الاعتراف على غرار ما نلحظه أول ما نفتح كتاب «شخصية المدرس المغربي الهوية والتوافق»[2] من تعبير عن شكر وامتنان الأستاذ تمحري عبد الرحيم لأستاذيه الدكتورين أحمد أوزي والدكتور عبد الرزاق خالد، ووصفه لهما بالجليلين، وكذا الأستاذ بوطالب عبد القادر حين تعرفنا عن طريقه على أستاذه الدكتور عبد الحليم عبد الجليل بإهدائه إياه لأحد كتبه، هي لحظات اعتراف يتوقف فيها الزمن، لا يتذكر خلالها الطالب إلا أنه أمام أستاذه مهما علا شأنه أو كبر سنه،

1- الزهرة الخمليشي: «البحث الميداني: مراحله، خطواته وتقنياته»، طبعة نونبر 2018، سليكي أخوين - طنجة.

2- د. عبد الرحيم تمحري: «شخصية المدرس المغربي الهوية والتوافق»، مطبعة النجاح الجديدة، 2013، تقديم: أحمد أوزي.

هو نفس إحساس الإنسان حين يحضن أمه أو يضع رأسه على ركبتها، فمهما كان له من الأبناء والأحفاد فلا يحس بين أحضان أمه العجوز إلا أنه طفل غرير لا غير، هي أحاسيس يلغى فيها الزمن وتلغى فيها حياة وتجارب الإنسان وما وصل إليه، ولا يستحضر إلا إحساسه الطفولي بكل براءته أمام أساتذته.

هذا الاعتراف الجميل والحب الكبير والفرحة التي ليس لها مثيل من بين كل أنواع الفرح المعهودة أحسستها حين هاتفني، ذات صباح جميل وأنا لازلت في فراشي وعيني نصف مغمضتين، أحد تلامذتي الذي نقب عن رقم هاتفي وكلمني من بلاد العام سام من أمريكا لمدة فاقت الساعة وهو يعبر عن سعادته العارمة بمكالمته لي وذكرياته عن الدراسة، كان اسمه "الكود حسن" اسم لا يمكنني نسيانه، كان ضمن أول فوج أدرسه، طفل أمازيغي حضر لتوه إلى ضواحي مدينة الدارالبيضاء مع أبيه من أجل الدراسة، كان يلبس «فوقية» أغلب الوقت ليس على غرار ما يلبسه باقي الأطفال، كان نجيبا ذكيا، يقوم بالأعمال المنزلية إلى جانب أبيه لعدم وجود أمه معه التي مكثت في «البلاد» مع بقية إخوته.

كان يظل طول اليوم بالمدرسة، كنا نتقاسم معه وجباتنا، كنا حريصتين أنا وأستاذته الذي تدرسه اللغة الفرنسية «خديجة» مقابلتي في نفس المستوى لسنين عديدة على أن يأكل معنا ما أحضرناه أو ما أحضره لنا التلاميذ ولو كان شايا وخبزا، كانوا يحضرون لنا أحيانا الشاي في دلو حتى لا يندلق فنشربه مع الخبز الساخن وكان يكفينا لتمضية اليوم كاملا بالمؤسسة فلا يوجد ما نقتنيه لنسد به رمقنا في العالم القروي حيث كنت أعمل.

أخبرني أنه يتابع دراسته بأمريكا شعبة الفيزياء، فرحت جدا وأمضيت اليوم أحس بسعادة عارمة وكأنه ابني الغائب عني الذي كلمني.

في بداية عهدي بممارسة مهنة التعليم شهدت آباء لازالوا يكرسون فكرة (أنا نذبح وأنت تسلخ) أو يعبرون لك بطرق مختلفة عن تفويضهم المطلق بأن لك جميع الصلاحيات أن تفعل بابنهم/ التلميذ، كل ما تريد وتعاقبه كيفما شئت دون أن يسائلونك بغية مصلحته الواحدة والوحيدة وهي أن يربى ويتعلم، وليس معنى هذا الكلام تكريس لأي نوع من أنواع العنف أو التعذيب، لا من طرف الأب لأن أقصى مبتغاه هو أن يكون ابنه أحسن منه، ولا من طرف المدرس الذي يعامله مهما كان نشوزه أو ساديته أو قسوته على أنه أيضا فلذة كبده، ويسعيان معا من أجل تربيته وتعليمه.

وقد شهدت أيضا في سنوات ما بعد سنة الألفين بعض الآباء وبعد مرور حوالي عشرين سنة من ممارستي للمهنة، يتحدثون عن خوف أبنائهم من المدرس بحجة ارتفاع صوته أو بسبب صرامته، أو بشكل سافر أحيانا يخبرونك أن نفسية ابنهم اهتزت ولا يرغب في العودة إلى الدراسة، وحين تسأل عن السبب لا بطل لك العجب، خصوصا حين يشنفون مسامعك بأنك يجب أن تحن عليهم! كيف؟ وهذا سؤال لا زال عالقا بذهني أجابت عنه مرة إحدى زميلاتي اللواتي يدرسن بجانبي إحدى الأمهات، حين قالت لها: «اطمئني ستعانق ابنك كل صباح وتضعه في حجرها قبل أن تبدأ الدرس!!».

آه يا حسرتاه على الأستاذ وما آل إليه حاله، فلا عجب ونحن نرى مؤخرا تعنيف التلاميذ لأساتذتهم، وتلك النظرة المجتمعية التي يشوبها نوع من التحقير في أحايين كثيرة، فقد تكالبت عليه كل الظروف من كل النواحي ليصل حاله إلى ما وصل إليه، مع أن بناء قيمة المربي من بناء قيمة المجتمع، والحفاظ على قيمته الرمزية واجبة من طرف جميع الهيئات والفاعلين الذين لهم علاقة بالمؤسسة التعليمية، والسعي إلى

توفير جميع السبل لحفظ الاحترام بين الآباء والمدرسين في علاقاتهم اليومية، وعليها أن تبدأ من الأساس ومن التعليم الابتدائي.

فلا غرابة حين نسمع أحيانا بعض العبارات التي نشتم منها نوعا من القدحية والتقزيم أو الاستسهال لقيمة الأستاذ خصوصا أستاذ التعليم الأساسي، حتى من طرف المتعلمين، فمرارا نسمع من بعض الطلبة الجامعيين وهم يتكلمون عن بعض أساتذة التعليم العالي وكنوع من التبرير للتنقيص من قيمتهم العلمية بذكر أنهم كانوا مجرد معلمين فأصبحوا أساتذة جامعيين!

فمن هو محمد عابد الجابري[1] الذي صنف في خانة الفكر والعلم، وأثرى خزانتنا المغربية والعربية بالكثير من إبداعاته الفكرية في مجالات شتى كالفلسفة وعلم الاجتماع وأصول الدين وغيرها، إلا معلم للابتدائي في الأساس، والأمثلة غيره كثيرة لا حصر لها ولا عد. فأهون على أستاذ جامعي أن يفسر لطلبته أصعب النظريات لشباب واع في مقتبل العمر، من تفسير نفس الأستاذ الجامعي أبسط درس لتلاميذ بالتعليم الأساسي. وجدير بوزارة التربية والتعليم وفي إطار التغيير والتجديد لضخ دماء جديدة في منظومة التعليم القيام بكذا تجارب لتغيير الروتين المتكلس في حياة الأساتذة والطلبة والتلاميذ وخوض غمار تجربة ليوم واحد فقط في السنة مثل هاته وهي تغيير المهام وتبادلها بين أساتذة جميع المستويات، مع أن الكثير من الأساتذة بالتعليم الابتدائي حاصلين على شهادات عليا ولو أنها ليست ضرورية هنا، فالتجربة تكفي لخوض غمار فكرة مجنونة وجميلة ومثيرة كهذه ولما لا!

1- د. محمد عابد الجابري: (27 كانون الأول 1935 بفكيك - 3 أيار 2010 في الدارالبيضاء)، هو مفكر وفيلسوف مغربي، له عدة مؤلفات في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها «نقد العقل العربي».

وحري بأستاذ جامعي أن يدرس ما دون مستوى الطلبة الجامعيين بكل بساطة ويسر حسب فكرة الكثيرين، بل الأمر على العكس تماما، فمن اليسر على أستاذ جامعي أو ثانوي أو إعدادي شرح نظريات معقدة الفهم أو أصعب المعادلات الرياضية أو دروس في موضوع التوالد البشري أو الحيواني، ومن العسر بما كان شرح أبسط الدروس المقررة لتلميذ صغير، فكلما صغر سن المتلقي كلما ازدادت صعوبة التلقين، فيمكن لأستاذ جامعي أن يشرح بكل يسر لطلبته مادة "ديناميات البنيات الاجتماعية التقليدية" أو مادة "الأنثروبولوجيا" أو مادة "سوسيولوجيا التربية" أو "علم الاجتماع الحضري" وغيرها من مواد السوسيولوجيا فيستوعبها الطلبة على أن يشرح لهم من أبسط دروس التربية الإسلامية للمستوى الثالث مثلا: "موجبات الغسل" أو درس "الصوم وشروطه" والذي يتلخص فحواه في جملة واحدة بسيطة بالنسبة لنا لكن ليس بالنسبة لهم وهي : «الصوم هو الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس».

ولشرح أي درس لابد من تفكيك مفاهيمه وتبسيطها، وشرح الألفاظ لغويا واصطلاحا، فيمكن للأستاذ شرح شهوة البطن، لكن كيف يمكن شرح شهوة الفرج من طلوع الشمس إلى مغيبها لأطفال لا تتجاوز أعمارهم التسع سنوات!؟

فمهما كانت شواهدك أو مستواك العلمي ستقف معقود اللسان في مثل هذا الدرس، وغيره من الدروس الكثيرة التي يجد الأستاذ نفسه أثناء شرحها عاجزا أمام التلاميذ. وغالبا ما أسمع من بعض الزميلات في المهنة أنهن يكتفين بكتابة بعض الدروس على السبورة طالبة من التلاميذ نقلها على كراريسهم دون شرح أو توضيح!

في سنوات التسعينات وفي بداية عهدي بمهنة التدريس، كنا نجتمع على شكل فرق تربوية مكونة من كل مستوى من مستويات التعليم الأساسي على حدى، نتناقش فيما بيننا وندون بعض الصعوبات التي تعترضنا أثناء التدريس، أو بعض الهفوات والأخطاء في المقررات المدرسية، وندون الحلول والمقترحات التي نراها ملائمة لتجاوز تلك الصعوبات، وكان مثل هذا اليوم فرصة لنا للخروج من الروتين اليومي وفسحة للعمل بدون ضجيج التلاميذ. وفرصة أيضا للاجتماع والالتقاء بباقي الزميلات والزملاء من الفرعيات الأخرى حيث نجتمع بالمدرسة المركزية، لأنني كنت أعمل بمجموعة مدرسية بالمجال القروي، لكن بعد مدة ليست بالكثيرة اندثر هذا النوع من الاجتماعات، فلم تعد لا فرق تربوية ولا الفرصة للوقوف على الأخطاء في بعض التمارين في مقرر التلميذ، ولم يعد هناك اعتبار لملاحظات الأستاذ الذي هو في اتصال مباشر مع التلميذ بواسطة المقرر الوزاري.

ولم يعد المجلس الأعلى للتعليم يستفيد من هذه الملاحظات ولا المفتشين الذين يقررون في المناهج ومواد التدريس. ولم تعد الحاجة لذلك الأستاذ ليبدي ملاحظاته على المقرر الوزاري المنزَّل، وانعدمت الفسح التربوية! وانعدمت أيضا الفسح من أجل الأنشطة الموازية! ولم يعد إلا التدريس والإلقاء اليومي الجاف الذي لا حياة فيه، لدروس على أطفال كلهم حياة ونزق وصخب!!

آخر رسائل الألفية الثالثة

كنت وصديقاتي لا نقطع المراسلة بيننا، لم يكن زمن الهواتف الذكية هي أم البليدة! كانت لنا القدرة على كتابة المطولات بدون أدنى صعوبة باللغة العربية، حتى مع زوجي أثناء رحلاته البحرية للكثير من بقاع العالم، كنا نتراسل باستمرار، فعندي كم لا بأس به من الرسائل أحتفظ بها إلى الآن، وأقل رسالة يمكن ان نكتبها لا تقل عن ثلاث أو أربع صفحات مطولة! لعَمري لأظنها آخر الرسائل المتبقية في هذه الألفية الثالثة.

التقينا صدفة على الدرج بثانوية "الحسن الثاني" بالدارالبيضاء حيث كنا ندرس، هو وزملاؤه المزوغين من مادة الفرنسية وأنا وزميلتي المزوغات من مادة الإنجليزية التي كان يدرسنا إياها أستاذ مقبل على التقاعد ونحس بملل شديد عنده ورغبة كبيرة في النوم وهو يلقي لدروسه من على مكتبه وهو جالس دائما، فلا نكاد نسمع صوته المنخفض. اجتمعنا في نفس المكان حتى لا ننزل ويرانا موظفوا الحراسة العامة وندخل في سين وجيم نحن في غنى عنهما، لكن بعد وجيز وقت لمحنا أحدهم أو ربما سمعوا أصواتنا فطردونا جميعا بعد أخذهم لأسمائنا، تخوفنا جدا من العقاب لأننا بمؤسسة معروف مديرها بصرامته، وخروجه عندما يدق الجرس بين كل ساعة وأخرى، كانت رؤيته من طرف التلاميذ بقامته النحيلة جدا لكفيل بأن يجعلنا نهرول خائفين ناحية أقسامنا حتى لا لا نضيع أية دقيقة أثناء الدخول لتفادي ذلك التثاقل

الذي يتعمده التلاميذ بين كل حصة وحصة. كنا نلقبه "بكنيبة" وتعني "كل مرة"، لأنه حين كان يوجه كلامه لأحد التلاميذ يقول له: «كنيبة أراك على هذا الحال، أي كل مرة أراك هكذا». كان يتدخل في ملابسنا وقصات شعرنا وما نحمله من شعارات على بعض ألبستنا، يتدخل في كل هذه الأشياء بشكل يومي، فلا تلميذة يمكن أن تراها في ثانوية "الحسن الثاني" بالدار البيضاء، أو الثانوية الشهيرة بثانوية "كنيبة" بدون وزرة أو بلباس مكشوف أو بزينة مبالغ فيها، وكان من المستحيل أيضا أن ترى أحد الذكور بتسريحة شعر غريبة وخارجة عن المألوف، فبمجرد رؤية المدير لأمر، كهذا فإنه ينبه التلميذ ويمنعه من الدراسة في اليوم الموالي حتى ينضبط للنظام الداخلي للثانوية! قبل الثامنة صباحا تجده واقفا بباب الدخول بنفسه ليراقب تعاليمه للتلاميذ هل نفذت أم لا!؟ وكل شاب يلبس لباسا عليه أحد الشعارات أو كلام معين فهو يستوقفه ويسأله هل يفهم الكلام والشعار الذي يحمله على ظهره أم لا؟ ومهما كانت لغته أو رمزه فإن كان غير لائق بتعاليمنا وقيمنا فإنه يرفض أن يلبس داخل المؤسسة التي يشرف على إدارتها!

فكم من مدير الآن على هذه الشاكلة؟ كم من مدير يجول بالمؤسسة التي يشرف عليها من أجل تقويم سلوكات التلاميذ والمساهمة في تربيتهم؟ كم من مدير مؤسسة يخرج من مكتبة من أجل مراقبة التلاميذ وهم في سن مراهقتهم التي تحتاج إلى الكثير من المراقبة والاهتمام من طرف الوالدين وكل الفاعلين في التربية لتجاوزها بأمان؟

كانت هذه المؤسسة "كنيبة" تعرف الكثير من الأنشطة واللقاءات التربوية والمحاضرات حول كثير من المواضيع حول "إدمان الشباب على المخدرات" أو "المساواة بين الرجل والمرأة" مع مشاركة أساتذة الثانوية الذين يدرسوننا وأساتذة آخرين من ثانويات أخرى مجاورة، وخلال هذه

الدورات التربوية تكون الفرصة سانحة أمام التلاميذ للنقاش والحوار والتعبير عن آرائهم وتعليق الملصقات الخاصة بالقضية الفلسطينية وكاركاتير "ناجي العلي" وغيرها، وأحيانا تكون مرفقة بمعرض مصغر للكتاب يضم كتبا زهيدة الثمن كنا نقتني منها ما سمحت لنا به نقود جيوبنا الهزيلة.

كانت هذه المؤسسة هي الثانوية الوحيدة في المنطقة من بين كل الثانويات التي تضم جميع التخصصات، ومن كل تخصص تتوفر على قسم، كالعلوم الرياضية والأدب الإنجليزي والعلوم التقنية... لم أدرس يوما مع الذكور في أي قسم خلال حياتي الدراسية، فالمدرسة حيث يعمل أبي كان اسمها "أبو القاسم الشابي بنات" بعدها في السلك الاعدادي والثانوي سيتم فصلنا عن جميع المكررين كوننا أول فوج في التعريب من القسم الثالث ابتدائي، فشكلنا دائما الفوج المعرب الغير مكرر بنات فقط، سيبقى الأمر كذلك في الثانوية وبعدها في مركز المعلمين والمعلمات، فأول عهدي بالدراسة إلى جانب الذكور كان بالتعليم الجامعي، درسنا مع بعضنا في نفس الثانوية، هو تخصص "علوم رياضية" بينما تخصصي "آداب عصري"، بدأت نبضات قلبي المكتومة أحس بها داخل صدري، فكيف لقلبي أن ينبض رغما عني؟ وبمجرد رسوبي آخر سنة نهائية بالثانوي فررت لمدينة بني ملال خائفة من نبضات قلبي ضانة أنه هو السبب في رسوبي، جلست مع عمي الذي يمتهن مهنة التربية والتعليم هو أيضا، لكن تخصصه كان في مادة التربية البدنية بمدينة بني ملال. وبعد تخرجنا معا هو من مركز البحرية التجارية بمدينة الدار البيضاء وأنا من مركز المعلمين والمعلمات بالجديدة في نفس السنة سيبدأ مشوارنا مع المراسلة حتى وهو بأماكن بعيدة حين يكون في رحلاته إلى الهند وهي من أطول رحلاته التي كان يقوم بها،

كنت أرسل إليه إلى مدينة "بورسعيد" أي "ميناء سعيد" بمصر ويراسلني من هناك، فأثناء رجوعه من الهند في طريقه إلى مصر عبر البحر يجد رسالتي ويبعث لي بالرد من هناك عبر البر وبعد أن ينزل من ركوبه عباب أمواج البحار، كما كنا نتراسل بكثرة من دولة قطر التي أمضى بها ست سنوات حتى أن دفتر الحالة المدنية لأبنائي بعثه لي منها، بعد أن تلقى خبر حملي بعد زواجنا وهو بدولة قطر، حيث ازدان فراشنا بالفرحة الأولى لنا بابنتي أشواق التي اخترت لها هذا الاسم لما عرفته حياتنا من الأشواق والحنين الدائم للقاء لسنين طوال.

حين سافرت إلى مدينة بني ملال ابتعدت عن بيضائي وصديقاتي، فمنهن من تدرس معي من المستويات الأولى في الابتدائي ولم نفترق يوما، فمن لم يعش الصداقة بكل صدقها من الطفولة أو فترة المراهقة والشباب بكل مقوماتها من حب وبراءة وتماهي فأكيد هو غير سوي وينقصه الكثير من التوازن، فالصديق هو من تستطيع أن تتجرد أمامه داخليا، وهذا لا يتأتى إلا مع الصديق الحق دونا عن جميع العلاقات الإنسانية الأخرى.

درست سنة واحدة "الباكالوريا" بمدينة بني ملال بعد أن كررت هذا القسم وسط ذهول أمي وبكائها، واستغراب كل أسرتي التي لا يعرف أبناؤها التكرار الدراسي إلا لماما، سافرت لأبتعد عن حبيبتي البيضاء، فكل صديقات عمري التحقن بالتعليم الجامعي بكلية ابن المسيك بدوني، لم نتعود يوما على هذا الانفصال.

هو انفصال مؤقت لسنة واحدة عدت بعدها لمدينتي البيضاء، مدينتي الفسيحة التي لا يملأ صدري إلا هواها ويشبعه رغم تلوثه! إلا أنني وإياها انفصلنا مرة أخرى لأنتقل إلى طنجة عروس الشمال ملتحقة بزوجي الذي استقر بعمله في الميناء المتوسطي بشمال المغرب من أجل لم شمل

عائلتنا الصغيرة بعد أن كان جوالا عبر بحار العالم. وقد كنت فكرت في نقل جزء من حياة هؤلاء البحارة المختلفة تماما عن حياة أهل الأرض في بحث إجازتي لو بقي زوجي في عمله الأول وهو نقل المسافرين إلى القارة العجوز.

فقد اكتشفت ولاحظت هذا الاختلاف الشاسع حين كنت أسافر معه أحيانا خلال عطلتي المدرسية، سافرت مرارا معه إلى مدينة "سات Sète" الفرنسية والتي تقع جنوبا، ثم إلى مدينة "جينوفا Genova" الإيطالية التي تقع بشمال إيطاليا، المدينة ذات التاريخ العريق المتعلق بكل الثقافة البحرية أو هي مدينة "جنوة" التي كانت محمية فرنسية في القرن 19 في عهد نابليون بونابارت، وكانت تسمى الجمهورية الليغورية، وقد خلدت هذه الحادثة بالجملة الأولى الشهيرة من رواية تولستوي "الحرب والسلام".

فسر لي أحد أساتذتي لمادة التاريخ يوما معنى لقبي ذي الأصل الأمازيغي الذي يعني المركب أو الباخرة. أكان اسمي/هويتي سيقودني حتما إلى الزواج برجل يمتهن ركوب الأمواج؟

كان استقرارنا بمدينة طنجة من أجل أسرتنا الصغيرة، مع العلم أن مسقط رأسي هو مدينة "قصبة تادلة" أو تادلا التابعة لإقليم بني ملال، وهي المدينة الصغيرة ذات القصبة العظيمة والجميلة من نوعها بالمغرب بهندستها العجيبة حيث بنيت فوق صخور عالية، وتادلة مدينة عريقة تشتهر بجودة تربتها وكثرة غاباتها ومياهها، بها نهر أم الربيع حيث يوجد منزل جدي لأبي، وبه كنا نمضي أغلب العطل الصيفية بالقرب من هذا الوادي، مع أن منزل جدي ينسب لزوجته "القبلية" أو المرأة التي كانت تقطنه. ويحكى لنا أن أحد أجدادي الفارع القامة في إحدى رحلاته التجارية للجنوب المغربي استقدم من هناك صحراوية صغيرة السن يافعة

بضفائرها، وهي الغريبة عن مدينة تادلة إلا أن كل أحفادها لا يزالون يلقبون باسمها/ هويتها الواضحة هي من لقبها "القبلية" إلى الآن، فبيت العائلة الكبير باسم "القبلية" فالجميع يقول "دار القبلية" والأبناء ينسبون لها والأحفاد أيضا وأحفاد الأحفاد، لا وجود لاسم الرجل في سلالة هذه العائلة، وهي من العائلات المعروفة بقصبة تادلة[1]، أكيد أنها كانت امرأة لها حضور قوي ولازال حتى بعد موتها، وذلك بانتساب كل سلالتها إليها إلى وقتنا الحالي عبر الأجيال.

فمدينة قصبة تادلة العتيقة كانت تشكل خليطا من النصارى الذين لازالت أطلال منازلهم قائمة إلى الآن وسط المدينة -الكانتيرات- وكذا اليهود الذين كانوا يمتهنون الحرف بمهارة وإتقان مشهود لهم بها "بزنقة الزرايب". كما أن هذه المدينة معروفة بخزان مائي على شكل "طعريجة" هذه الآلة الموسيقية ذات الصنع المغربي الحصري الخاص دونا عن كل بقاع العالم، وحاليا أصبح بمدينة قصبة تادلة خزانان اثنان أي "طعريجتين" تستقبلانك وأنت قادم إليها من الدار البيضاء شامختين حصريا دونا عن كل المدن المغربية، يمتاز أهلها بحب وعشق غير طبيعيين لمدينتهم.

1- قصبة تادلة هي قلعة تاريخية تشهد معالمها العتيقة على حضارة تراثية وتاريخية عريقة تتجسد في مواقع وأماكن تتواجد بالمدينة العتيقة التي تمتد على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع، يرجع تاريخ مدينة قصبة تادلة إلى مولاي إسماعيل الذي بنى فيها قصبته الشهيرة التي تعتبر أعظم وأجمل قصبة من نوعها بالمغرب، فهي ذات هندسة عجيبة بنيت فوق صخور عالية، وقد لعبت المدينة دورا هاما في حركة المقاومة، وتعد ناحية تادلة من أغنى الأقاليم، بها مراعي خصبة واشتهر أهلها بتربية الماشية الكثيرة، بناء القصبة يرجع إلى عهد الموحدين الذين بنوا بعد ذلك قنطرتها القديمة ثم في العصر المريني صارت منطقة تادلة بقصبتها مقصدا للكثير من الثوار، وبسبب انقسام المغرب في عهد الدولة المرينية وصعود الوطاسيين، آنذاك صارت تادلة منطقة عازلة بين المملكتين، الأمر الذي جعل ذكر تادلة كمدينة يختفي من المصادر ولم يذكرها الحسن الوزاني ولا مارمول، رغم قدمها منذ القرن 16 الميلادي.

في مدينة بني ملال درست سنة كاملة، وكان من بين من درسوني مادة الفلسفة أستاذ يتقلد حاليا حقيبة وزارية مهمة، لكنه لا يعني لي الشيء الكثير بالمقارنة مع أساتذة غيره ليسوا بوزراء ولا من رجالات السياسة لكنهم تركوا بصمة واضحة في حياتي، كان هذا الوزير -حاليا- كثير الغياب وحين نتساءل عن سبب ذلك يخبروننا أنه يذهب لمؤتمرات مهمة خارج الوطن، كان لا يبرح كرسيه أثناء إملاء المادة علينا لندونها على كراريسنا، أم أنه كان يبسط السجاد الأحمر ليصل إلى أفضل الكراسي المريحة اجتماعيا والتي يسيل لها اللعاب ويستحيل أن يحترق الواصل إليها مهنيا أو يفكر في تركها. ونادرا ما يشرح لنا، فمع غيابه يكتفي بإملاء الدروس علينا حتى نتدارك ما فاتنا، ونحن حينها بأهم قسم في حياة كل طالب وهو الباكالوريا أي المفتاح لكل الأبواب الموصدة.

كنت وصديقاتي لا تنقطع الرسائل المكتوبة بيننا، لم يكن زمن الهواتف الذكية أم الهواتف التي استبلدتنا. كانت لنا القدرة على كتابة المطولات بدون أدنى صعوبة حتى مع زوجي ذي التخصص العلمي أثناء رحلاته البحرية لكل بقاع العالم، كنا نتراسل باستمرار، فعندي كم لا بأس به من الرسائل أحتفظ به إلى الآن يتعدى المائتي رسالة!

أتساءل: أيستطيع أجيال اليوم، أجيال التكنولوجيا الحديثة، كتابة رسائل مطولة أو حتى قصيرة؟ هل أصحاب الرسائل القصيرة عبر الهواتف وجميع وسائل التواصل بلغتها الممسوخة ذات الخليط من الأرقام وحروف جميع اللغات التي اختلقها الشباب مع التغيير الحاصل الآن يمكنها أن تخلق التواصل على مستوى التعابير واللغة؟

أم الفصاحة، أصبحت في خبر كان، فالرسائل الورقية انقرضت، وأجيال اليوم ليس لها لا الوقت ولا الصبر ولا القدرة على الكتابة.

هل اللغة ستنقرض يوما؟ مع أن أساس كل إبداعات العالم هي نص مكتوب سواء في المسرح أو السينما...، فأساس كل الدراسات والبحوث كتابة.

ابني يقول لي بدوره حين يجدني أتخبط مع أشياء بسيطة في عالم التكنولوجيا مازحا باللغة الفرنسية: «الشيوخ والتكنولوجيا les vieux et la technologie»، فهو بمجرد بلوغه السبع سنوات أو أكثر قليلا بدأ يخاطبني ببعض الحروف: "STP..." ولا أفهمه، لأنه ينطق لي بها حروف متفرقة وليس لديه الوقت أو الصبر لينطق لي بكلمات، وكانت أخته تترجم لي هذه الرموز وهذا التشفير وتقول لي: قال لك من فضلك أمي أريد كذا...، إلى درجة أنني حين أمازحهم يقولون لي: "LOL" وفهمت بعد ذلك أن هذه الحروف هي رمز للضحك المتعارف عليه في وسائل التواصل، فحتى الضحكة والابتسامة يختصرونها عند سماعهم لبعض المستملحات التي تلاقي استحسانهم، فيترجمون أحاسيسهم وتعابير ملامحهم باختصارها بتعبير "LOL".

البيضاء.. حبيبتي..

أيام كثيرة من السعادة عشتها في بداية عملي ولسنين تلتها خلال تدريسي بنواحي مدينة الدار البيضاء في أول تعيين لي مع مجموعة من ممتهني التدريس لازالت علاقات الصداقة تجمعني وإياهم إلى الآن، مع أن إكراهات عديدة عانيت منها لست وحدي لكن كل العاملين معي، وكنت أعلم أن هناك العديد غيرنا من تمنى مثل إكراهاتنا، لأنهم يعيشون القسوة أثناء تأديتهم لعملهم أكثر منا.

كنت محظوظة جدا لأن تعييني كان بثاني منطقة من بين ستة وخمسين، كنا نرتبها حسب أولويات كل طالبة معلمة سنة التخرج كل حسب منطقة انتمائها ورغبتها، فكانت النتيجة المذهلة وهي أن تعييني كان بنيابة عين الشق الحي الحسني وهي ثاني منطقة في الترتيب، فقد بدأت بالنيابات الخمس حينها لمدينة الدار البيضاء حبيبتي، حيث يسود عدم التجانس الشديد لكن مع تعايش جميع الفئات والطبقات الاجتماعية النازحة من مختلف الأقاليم، هي البيضاء مدينة المقاهي والفنادق الضخمة المصنفة والحانات والمراقص الليلية وأيضا أحياء الصفيح التي تأوي عددا هائلا من البشر "كلشي في كازا"[1] كما يتغنى بها أحدهم في أغنية جد معبرة عن ذلك الخليط العجيب المتعايش يوميا.

1- أغنية لـ «المهدي بن ابراهيم»، وهي أغنية اجتماعية تفضح التناقضات في مدينة الدارالبيضاء والفوارق الصارخة بين مختلف الفئات المتعايشة في هذه المدينة الضخمة التي تعتبر ثاني مدينة بعد القاهرة من ناحية الانفجار الديموغرافي في القارة الإفريقية.

حبيبتي البيضاء حيث عشت طفولتي ومراهقتي وشبابي وأغلب سنين عمري وأنجبت بها أولادي وتزوجت فيها بزميلي في الثانوية الذي يقطن غير بعيد عني وبها اشتغلت لمدة فاقت السبع عشرة سنة، ولا أعرف العيش في مدينة سواها.

جاء تعييني بمدينتي الحبيبة، وانتهى الترقب والخوف من منطقة التعيين. وأعرف من بين الطالبات المعلمات من دفعت بزواج سريع شبابها وحياتها بكاملها نظير تعيينها بالمنطقة التي تريد التحاقا بالزوج، ولمهازل الزمن وبعد الإسراع بدفع عقود الزواج لإدارة مركز التكوين، وبعد تخرجنا جميعا متزوجات وعازبات استفدنا من تعييننا في اختياراتنا الأولى بعد موت إحدى الأستاذات اللواتي هاجمتها مجموعة من الكلاب، فمزقت أوصالها، رحمة الله عليها. وأذكر أن أحد الأساتذة الذين عملوا معي سألني عن الثمن الذي أعطيته نظير حصولي على تعييني!؟ استغربت سؤاله الذي مرده أنه يستحيل حينها أن يصل أحد الأساتذة إلى مثل ذلك التعيين إلا بعد أن يكون قد انتقل عبر مناطق عديدة نائية ممضيا جل حياته وسنين شبابه قبل أن يصل إلى المكان الذي يفضله، لم يكن حينها التعليم جهويا، وفعلا فسنة تخرجي كانت استثنائية بامتياز.

فكل طالبة أستاذة تم تعيينها حسب اختيارها الأول أو الثاني وعلى العكس من ذلك الذكور الذين لم يستفيدوا من هذا الامتياز، ومع ذلك فالعديد من الطالبات الصغيرات السن كن قد قمن بعملية استعجالية للزواج من أجل الالتحاق بالزوج/ المنقذ وحتى لا يقذف بها كحجر المنجنيق إلى أبعد منطقة حدودية. وأذكر أننا كتبنا أسامي مناطق لم نسمع عنها قط من قبل كفم الجمعة وتندوف وآسا الزاك وبصعوبة وضعنا توقيعنا مكرهين أسفل الورقة وتحمُّلنا لكامل مسؤوليتنا، والالتحاق بأي مكان مدون في تلك الورقة.

وكانت البداية في مجموعة مدرسية، ورغم كل الإكراهات التي كنت أعيشها لا أذكر إلا الأيام الجميلة التي قضيتها في المجموعة المدرسية مكان تعييني الأول، كان الحماس كله والفرحة كلها، فهي لا تبعد عن بيتي إلا بحوالي عشرة كيلومترات عبر الطريق المؤدية إلى مراكش، وبها طريق غير معبدة لا تتجاوز ثلاثة كيلومترات. حين أوصلني أبي رحمة الله عليه أول مرة وكنت خلالها متدمرة جدا كونها في البادية وطريقها غير معبدة ومتخوفة من قلة عدد الناس! استسهل الأمر ضاحكا وقال لي: إنك جد محظوظة بتعيينك هذا، فكل يوم ستعودين لبيتك وفراشك ولن تتغير حياتك! إنها الجنة (يقصد التعيين)، عكس الظروف التي عملت بها. حيث حكى لي فيما حكاه أن أول تعيين له كان بمناطق جبلية ناحية إقليم أزيلال، اسمها "تيسقي" و"تيلكيت"، كان ينام محيطا فراشه بالجرائد والكتب والمجلات التي يمتلك حتى إذا سقطت أي عقرب أو تمشت عليها إحدى الزواحف السامة فإنه يسمعها ويحس بها وتعطيه إنذارا فينهض لينقد حياته، هكذا حكت لي أيضا إحدى صديقاتي أصولها من منطقة أزيلال عن إحدى زميلاتها في العمل النازحات من مدينة الرباط اللواتي أصبحن يضرمن النار في فرن القسم أحسن منها هي بنت المنطقة الثلجية والتي لا يمكن لأستاذ أن يبدأ درسه قبل أن ينظف الفرن داخل القسم ويملؤه بالخشب مع إضرام النار فيه حتى يستطيع الحركة والكتابة والكلام من شدة البرودة، وحتى يستطيع الأطفال مسك القلم والكتابة التي تستعصي إذا لم يتم إضرام النار بالأعواد التي يحضرها الأطفال، كل وعوده رغم فقرهم وحاجة أسرهم لكل قشة من أجل التدفئة التي يستحيل العيش بدونها في بعض المناطق، فهل المتحكم هنا بالنسبة للأستاذ الوعي أم الاضطرار...؟ فأين التجهيزات اللازمة في مناطق ثلجية كهاته؟..

حين تبنى المدارس فإن البناية توضع عبارة عن حجرات بأربعة جدران لا غير خصوصا في المناطق القروية.

كانت مدرسة عملي الأولى "لحفاية" بدون سور، فيمر أمام الأقسام الجميع، حتى العطارين المتجولين أو بائعي الأواني الطينية وغيرهم أو السكان، كانت بدون سور وبدون ماء وبدون مراحيض، فالأرض وهبها أحد الأعيان وتم بناء بعض الأقسام بها، ومع مرور السنين بدأت تعرف بعض الإضافات، فيكفي بالنسبة لنا وجود أربعة جدران ومدرس لممارسة مهنة التدريس مهما كانت الظروف ولو بدون توفر أية وسائل تعليمية، وأدنى الشروط التي تحفظ كرامة الإنسان وليس الأستاذ وهو يمارس مهنته، فطيلة مدة عملي كلها بمدينة الدار البيضاء "حبيبتي" لأكثر من سبعة عشر سنة اشتغلت في ثلاثة مدارس بالمجال القروي كانت كلها بدون مراحيض لا بالنسبة للتلاميذ ولا للأساتذة، أحاول أن أسترجع ذاكرتي وكيف كانت لي القدرة على التحكم بجسمي يوميا وأن لا أقضي حاجاتي حتى أعود إلى بيتي!

في أول عهدي بالعمل كان التوقيت المدرسي بصيغته الأولى حيث نبقى في المدرسة طيلة اليوم من الساعة الثامنة أو العاشرة صباحا إلى الخامسة مساءا. لأن فترة التوقف عن العمل من الثانية عشر زوالا إلى الثانية ظهرا غير كافية للذهاب والإياب، كنا أكثر حظا من الذكور لأننا نذهب لسكنين مدرسين آهلين بعائلات زملائنا لقضاء حاجتنا إن اضطررنا لذلك، محرجين كل مرة، لكننا على الأقل أكثر حظا من الذكور الذين لا يستطيعون اقتحام السكن المدرسي لوجود أسر زملائنا به، فكنا نسمع عن أحد زملائنا الذي يقضي اليوم بكامله في المدرسة أنه بين الفينة والأخرى يرمي بكيس بلاستيكي أسود بعد أن يقضي فيه حاجته داخل القسم حين لا يكون معه التلاميذ، أما عن التلاميذ فلا يجدون البديل

والمفر من قضاء حاجاتهم وراء الأقسام التي تتصاعد منها روائح كريهة لا يمكن تحملها لمن سولت له نفسه أن يمر خلف جدرانها.

فحتى بعد بناء السور للمدرسة وللمراحيض فقد بقيت بدون ماء مما جعل الحال يبقى على ما هو عليه. كنت أخجل أن أنبه الأطفال إلى أن النظافة من الإيمان، مع أنها أول جملة تكتب على جدران المدرسة، فأية نظافة وأي إيمان يمكن أن يتحدث عنها الأستاذ والحال هكذا؟ فهل سلوك الأستاذ نابع عن وعي أم عن اضطرار؟

قبل بناء السور كنا نطالب التلاميذ بالابتعاد لقضاء حاجاتهم التي لا يمكن حصرها أو التحكم بها لمدة طويلة لصغر سنهم، ففي أول عهدي بالتدريس فوجئت بوقوف امرأة من أعيان المنطقة تنتمي للعائلة الواهبة لأرض المدرسة، تصيح مستشيطة غضبا لذهاب الأطفال للحقول المجاورة التي تملكها بعد خروجهم من المدرسة، حينها لم يطبق بعد التوقيت المستمر بصيغته الحالية، فكان التلاميذ وبحكم بعد بيوتهم عن المدرسة بأكثر من ثلاثة كيلومترات يمكثون بجوار المدرسة مدة ساعتين، كنت أستغلها لتصحيح كراريسهم، لتطالبني بضبطهم -حتى خارج وقت العمل- لتستطرد وكأنها تعطف على حالي: «أعرف أنكم تتقاضون "زوج فرنك"» كما نطقت بها بعد سنين إحدى الوزيرات قاصدة بذلك الإشارة إلى القدر الهزيل الذي يتقاضاه موظفوا الحكومة بعد التقاعد، أما المرأة الأولى فقد قصدت تجريحي والإساءة إلي، وإلى أن موظفي التعليم لا يتقاضون إلا أجرا هزيلا عن أداء مهمتهم التدريس.

طبعا كلامها فيه الكثير من الصحة، لكني لم أستشعر حينها ذلك، بل أحسست بالفخر لعلمي أنها امرأة أمية وجاهلة، ورغم توفرها على سيارة وبيت كبير فسيح وأراضي لا حدود لها كما يحكون عنها، فقد قصدت تجريحي لأنها لا تملك مكاني مع أنها صاحبة الأرض.

طيلة مدة عملي لأكثر من عشرين سنة، نُفذت أهم بادرة أعجبت بها أيما إعجاب وهي تلك التي قام بها أحد وزراء التربية الوطنية الذي لم يتجاوز مكوثه بها شهرين اثنين، حيث أمر أن تتم صباغة جميع المدارس العمومية أينما وجدت وطلاؤها بألوان زاهية حتى في حالة عدم توفر الميزانيات لتتكفل جمعيات الآباء بذلك وتدخل على الخط. وفعلا كان، فقد أصبحت المدارس العمومية زاهية بألوانها المتنوعة التي تزينها وتميزها عن باقي المباني الحكومية. فقبل هذه البادرة كنت لا تستطيع أن تميز بينها وبين مقر الدرك الملكي أو المستوصف أو مقرات العسكر في القرى لأنها كلها مبنية بنفس الطريقة بواسطة الجدران سريعة البناء "les murs préfabriqués" ويعلوها كلها علمنا الأحمر، هذا النوع من الجدران الغير صالحة لصحة الإنسان حسب ما جاء في أحد البرامج الصحية التي شاهدتها على شاشة التلفاز الذي يشرح خطورة هذه الجدران وكونها تتكون من مواد مسرطنة إذا عمل بها الإنسان لمدة طويلة، لم أفهم كيف يبثون في الإذاعة الوطنية برامج توعوية مثل هاته والموظف لا يملك حتى حق اختيار المكان الذي يعمل به، هل هو مبني من جدران بطوب وإسمنت أم من جدران سريعة البناء؟ فالأجدر بالمشرفين على الإذاعات الوطنية عدم إدراج مثل هاته البرامج خصوصا وأن العديد من الموظفين مجبرين على العمل بأماكن غير صحية خصوصا بالعالم القروي والتي تنعدم فيها كرامتهم، وكان الأجدر بوزارة التربية والتعليم قبل الإعلان عن الحق في التربية والتعليم للجميع التي تحظى بكونها تأتي في صدارة الأولويات والانشغالات الوطنية، أن تعلن عن مراحيض لجميع المؤسسات التعليمية وعن الحق في الماء وعن قاعة للأساتذة بجميع مؤسسات الابتدائي التي لا تتوفر عليها استثناء دون بقية المستويات كالإعدادي والثانوي، وأن تعلن عن قرار توفير مطعم

خاص لأساتذة التعليم الابتدائي بجميع مؤسسات العالم القروي بدل أن نلوم الأستاذ إن هو طالب تلميذا بأن يحضر له ما يقتات به في مجال قروي لا يمكن أن تجد به ما تسد به الرمق، فلا يحق لهذه الوزارة التي تهتم بالشأن التربوي التعليمي أن تقذف بأساتذة في كل بقاع العالم القروي ومناطقه النائية المستعدين لتأدية مهامهم في هذه المناطق، بدون توفير مراحيض لهم وبدون ماء كأدنى حق وتوفير مطاعم وقاعات تضمن كرامتهم وتحفظ ماء وجههم وخصوصا وجههن، فنحن أمة تعودنا أن نرى بعض الرجال يقضون حاجتهم خارج البيوت، فذلك لا يشكل منظرا نشازا بالنسبة لنا ولو كان مرفوضا حتى في المناطق الحضرية وربما حتى في أرقى الأحياء أحيانا، لكن ماذا عن الأستاذة في المناطق القروية في مدارس بدون مراحيض وبدون ماء وبدون قاعة لترتاح بها قبل أن يحين وقت عملها؟ هل يجوز لنا أن نكتب النظافة من الإيمان لتلاميذ قد يتلصصون مسترقين النظر لأستاذ يلتصق بجدار المدرسة إن توفر من أجل قضاء حاجته مستترا به؟!

ربما كان زملائي محظوظين لأننا عملنا في زمن لم تكن به الهواتف الذكية قد وجدت بعد! فمع هوس التصوير لأي شيء وكل شيء الذي نلحظه الآن عند أجيال اليوم، فلكانت عوراتهم كشفت على مواقع التواصل الاجتماعية وكشفت معها سوءاتهم، ولانهارت سمعتهم ومعها قيمتهم.

ففي كل الوظائف تتوفر هذه الشروط كأساسيات للحياة والكرامة الإنسانية قبل توفير شروط العمل، فنجد الفقيه حين يعمل في إحدى القرى فسكانها يوفرون له السكن والأكل والشرب وكل شروط الحياة الكريمة، والعسكري أيضا وهو متاخم على الحدود فهو لا يشغل تفكيره بهذه الأساسيات للحياة لأنها متوفرة لديه، وكذا الممرض والطبيب

والشرطي الذي يعوض عن تحركاته وتنقلاته مع توفير الأكل والشرب والسكن عند قيامه بمهامه في أي مكان أرسل إليه في مأمورية تخص وظيفته، حتى أعضاء الحكومة نراهم على شاشات التلفاز وقد وضعت أمامهم قنينات ماء وكؤوس بمنتهى الأناقة، وبعد انتهاء اجتماعاتهم يقيمون حفلات شاي... وغيرها، إلا أستاذ التعليم الابتدائي/ الأساسي في المجال القروي، فأكله كفر وخطيئة لا تغتفر خصوصا إذا أحضر إليه العنصر المباشر له وهو التلميذ شيئا يقتات به.

فهل السلوك البشري وعي أم اضطرار؟

أليس الأستاذ هو الأكثر وعيا في المجتمع بأن النظافة من الإيمان؟ أليس الأستاذ هو من يحارب كل الآفات السيئة ويدعو لمكارم الأخلاق؟ أم أن ممارسة سلوكاتنا هي خارجة عن وعينا وعن طاقتنا في التحمل؟

أليس الأستاذ بالمستوى الابتدائي هو من يلقن التلاميذ مكارم الأخلاق وآداب الأكل وآداب قضاء الحاجة؟ وكيفية الاستبراء والاستنجاء والاستجمار؟

أليس المعلم هو أول من يعلم الطفل أبجديات الحياة وأهم السلوكيات؟ كيف لهذا الأستاذ أن يلقن سلوكات لتلاميذه في غياب المرافق الأساسية التي تحفظ ماء وجهه أمام تلاميذه ومصداقية دروسه خصوصا في المجال القروي؟!

جامعتنا...
مكتبتنا مفخرتنا؟ عرقلتنا!

من الأمور التي تحز في النفس ومدعاة للاستغراب في كليتي حيث أدرس هي اللحظة التي تفكر فيها في استعارة كتاب من مكتبة الكلية. فمجرد الحصول على كتاب في زمن التكنولوجيا والمعلوميات والترقيم والمكتبات الالكترونية يجعلك تتوه وتمتلك الرغبة بالقفز على حاجز الإدارة المتكلسة منذ أزمنة غابرة. حيث لا زالت المكتبة بالكلية وكأنها لا تمت لزمن الألفية الثالثة في شيء! يتم تسييرها عبر الكثير من الشروط والمعوقات التي تحد من استفادة الطالب وتحرمه من كتب جامعته! بل إن كل من استفاد من كتاب لمرة واحدة لا أظن سيدور بخلده أن يعيد الكرة مرة أخرى من كثرة الشروط الموضوعة للاستفادة من أي كتاب مثل تخصيص يوم لكل شعبة للإعارة على حدى، مع ضرورة وضع الطالب لبطاقته واحتفاظ الإدارة بها، وفي حالة تجاوز الطالب مدة أسبوع في استعارة الكتاب فإنه يعاقب بحرمانه من الاستعارة مدة شهر ونصف! وغيرها من التعقيدات الكثيرة.

فبدل هذا كله يمكن أن يكسر الجدار المعنوي والمادي كبناية بين المكتبة وقاعة المطالعة حتى يتمكن الطالب من الاطلاع على كل الرفوف الخاصة بشعبته واكتشافها مباشرة دون وسيط، ليطلع على الفهارس ويتوجه مباشرة للمحاور المبحوث عنها، والاكتفاء بوجود باب زجاجي قصير في مدخل القاعة مزود بالتقنيات الحديثة المتوفرة في كل مكتبات العالم. لتعلن بصوت طنينه عن تجاوز أي كتاب لباب قاعة

المطالعة كمكتبة «آل سعود» بمدينة الدارالبيضاء، ومنع استعارته خارج هذا الفضاء لمساعدة الطلبة على إنجاز العروض وبحوث الإجازة وغيرها من الأبحاث. وهي فرصة لتوفير خلية الموارد البشرية لموظفيها الذين بمجرد فتحك لحديث بسيط معهم يتذمرون ويشتكون من قلة عددهم وعدم استطاعتهم تلبية كل طلبات الوافدين عليهم لاستعارة الكتب، وعدم توفر المساعدة الكافية، وتقليصهم من خمسة عشر موظفا إلى ثلاثة أشخاص فقط في كل جناح!

فلماذا لا تواكب مكتبة الكلية الجديد؟؟ وتساير العصر؟؟ فهي الأولى بذلك كمؤسسة تعليمية، فمن المفروض أن تكون متجددة ومواكبة لمستجدات عالم التكنولوجيا الحديث، وتضاهي أكبر المكتبات من حيث التقنيات الحديثة كالمكتبة الوسائطية بمدينة طنجة أو مدينة تطوان الخاصة بنساء ورجال التعليم، اللتين رغم عدم غزارة الكتب المتوفرة بهما إلا أنهما تسايران المستجدات المحدثة، كلوجستيك فرضته ضرورة العصر وذلك بالابتعاد عن ترسانات وحواجز اعتباطية سئمنا ومللنا منها، والأولى بهذه المكتبة المتواجدة بالحرم الجامعي أن تكون السباقة لمثل هذا النوع من التجديد وإزالة كل القيود أمام طلبتها، طلاب العلم، والأولى لهذه المكتبة هي ومثيلاتها من مكتبات الجامعات في كل البلاد أن تضم كأول ما تضمه أطروحات الدكاترة الذين يدرسون بالكلية نفسها. فأولى بطالب يدرس بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل / تطوان بشعبة "السوسيولوجيا" إن اختار موضوعا لبحثه مثلا: السلطة أو أحد آلياتها، أن يتوفر له الاطلاع الأولي لتثمين بحثه بالعود إلى مرجع "اللامركزية كهندسة لمجالات التنافس والصراع: السلطة المركزية وآليات إنتاج النخب المحلية " وهو عنوان أطروحة الدكتور عبد القادر بوطالب، والاعتماد عليها كمرجع أول وأكيد سيجد الطالب فيه

ضالته قبل أن يتوجه بالبحث عن كتاب رحمة بورقية: "الدولة والسلطة والمجتمع".

أما لمن اختار موضوعا لبحثه يتعلق بالحياة الريفية أو التنمية أو الهجرة فقبل أن يعود لرواد مدرسة شيكاغو أو الفلاح البولوني فالأولى به أن ينهل من واقع ترابنا ويعتمد على أطروحة الدكتور عبد الرحمن الزكرتي: "ثقافة المقاومة بالريف: مقاربة سوسيولوجية أنثروبولوجية للأسرة القروية واستراتيجيات تدبير الحياة اليومية"، وغيرها من مقالات الأستاذ حول تراث أيت ورياغل الثقافي باللغتين العربية والانجليزية، أو بالاعتماد على مقالة الدكتورة الخمليشي والتي اختارت لها عنوان: "نساء الكيف من المستفيد من عمالة صنهاجة السراير"، والعديد من إصداراتها الغنية، وشخصيا أفضل خلال بحثي حول موضوع "الاحتراق المهني" وتأثيره على الأداء الوظيفي لدى مدرسي التعليم الأساسي بادئ دي بدء أن أستند على مقتطفات من دكتوراه الدولة في علم النفس التربوي التي عنوان موضوعها: "الهوية المهنية والتوافق النفسي الاجتماعي " للدكتور تمحري عبد الرحيم، أو قراءة في كتابه شخصية المدرس المغربي: "الهوية والتوافق" للاطلاع على خصوصية المدرس المغربي قبل الاطلاع على دراسات كريستينا ماسلاك الأمريكية حول الموضوع. والأمثلة كثيرة وتجوز على باقي الأساتذة وأطروحاتهم الغنية، وليس في هذا نوع من التحيز لهم أو التعصب أو التملق لهؤلاء الدكاترة بل لأن أهل الدار أولى من غيرهم بخيراتها، والأولى لطلبة السوسيولوجيا أن يرشفوا من هذه المجهودات وهذا الفكر المتواجد معهم بشكل يومي ومباشر.

فكل البحوث والأطروحات أو أغلبها يركن على الرفوف ويعلوها الغبار بل حري بها أن تخرج للوجود وتصبح بين أيدي الطلبة وبين أيدي كل باحث أو مختص أو كل راغب في العلم.

والدليل على كلامي هذا أنه خلال بحثي عن عناوين أطروحات دكاترة السوسيولوجيا الذين درسوني من أجل كتابة الإحالة عند ذكر اسم كل أستاذ درست عنده في شعبة السوسيولوجيا، فإنني لم أجد لذلك طريقا غير الذهاب عند الأساتذة مباشرة مجبرة لا مخيرة من أجل أخذ عناوين الدكتوراه منهم، مع أني لم أذكر لهم أني أنوي نشر كتاب أو شيئا من هذا القبيل، وكنت أبحث عن مختلف التبريرات لطلب ذلك، ولحسن حظي لم أجد منهم إلا كل التعاون كما عودونا دائما نحن الطلبة السوسيولوجيين، حتى أني حين استأذنت الأستاذ بوطالب بأخذ معلومات عنه في البحث منحني كل الصلاحية بكل ثقة في النفس أن أكتب بكل حرية عنه ولو كان ذلك سلبا.

ولا أستوعب كيف أنه وقبل أن تدخل لمشاهدة أي فيلم في السينما أو أية مسرحية فإنك تجد الأفيشات والإعلانات على جدرانها وكذا الصور الكبيرة لممثلين من القدماء أو حديثي العهد بالفن، كاعتراف بسيط بهم وكتذكير بإضافاتهم لهذا الفن وهذه الصناعة التي أساسها نص قد يكون مكتوبا من مختص سيناريوهات أفلام أو حوارات مسرحية وقد تكون فكرته مستوحاة من كتاب أو فكرة كتبها أديب أو دكتور كبير مثل الكثير من الأفلام التي أتحفتنا والمستوحاة عن قصص نجيب محفوظ أو إحسان عبد القدوس أو يوسف السباعي أو أجنبية ككتابات فيكتور هيجو أو شكسبير أو موليير...

ففي كل دور السينما وكل المسارح تتطلع على صور عدد من الممثلين وأسمائهم وأسماء مخرجين ومؤلفين، وهذا شيء متعارف عليه عالميا. وفي كل دور السينما وكل مسارح العالم.

لا أستوعب هذا الأمر لأنني أقوم بمقارنات بسيطة جدا. أوليس الأولى القيام بنفس الشيء مع الأساتذة الجامعيين على الأقل باعتبارهم أعلى

تراتبية من جميع مستويات التعليم الأخرى ويشكلون أقل فئة بالمقارنة مع الأساتذة في باقي الأسلاك؟ أليس الأولى بعمداء الكليات أن يحرصوا كل الحرص على أنه ومن بين الميزانيات الضرورية بالجامعة تخصيص جزء من ميزانية الجامعة للتعريف بالأطر الجامعية كإنشاء حيز مكاني يتم فيه تعليق إطارات كبيرة من أجل كوادر الجامعات أي دكاترتها بها صور لهم وعنوان الدكتوراه لكل أستاذ وعناوين أبحاثه وكتبه إن توفرت، وإن لم تتوفر يتم تحيينها فيما بعد حسب مستجدات كل أستاذ، أو تعليقها بالقاعات التي يدرسون بها حسب كل شعبة.

وتبقى سيرة كل أستاذ للذكرى حتى إن انتقل إلى مكان آخر أو إلى دار البقاء لينتفع بعلمه. وهي أيضا فرصة حتى يستعين كل طالب بأبحاث هؤلاء الدكاترة وكتبهم والاستشارة معهم بالنسبة للطبلة الذين يهمهم موضوع بحث أستاذ بعينه.

فلماذا دائما كل الظروف تجعلنا نبحث عن الأذن الثانية البعيدة عن تناول أيدينا كما نعبر عن ذلك بالمثل الدارجي المغربي الدقيق؟ فأولى بكل يد أن تلمس الأذن القريبة جدا منها بكل يسر وكل سهولة فقد خلقنا بيدين وأذنين! ومللنا وتعبنا من التعب!

فلماذا في بلداننا نتعذب للوصول لشيء هو قاب قوسين منا ودوما نصطدم بشتى العراقيل لأشياء من حقنا حتى يستغني الكثيرون عن المطالبة بها أو البحث عنها.

المفتشون لا يؤطرون شتاء
المفتشون كالفراشات

عند ذكر كلمة "مفتش" في المؤسسات التعليمية / الابتدائية، يصاب الأساتذة بالذعر أو هو نوع من الترقب على الأقل ونوع من الاضطراب، وكنت أستغرب لهذه العلاقة الغريبة التي تخلق أزمة عند الأساتذة؟؟ ولا أعرف تحديدا دور المفتش أمام ما ألحظه من تغيرات كثيرة تحدث إذا قدم عندنا أو سمعنا بقدومه في إحدى المؤسسات القريبة أو التابعة لنا! أليس المفتش ذا إطار معين؟ أو مهارات معينة تفوق ما عند الأستاذ والمفروض أن يتشاركاها من أجل التلميذ ومن أجل مصلحته ومساعدته على تجاوز صعوباته ومن أجل الوطن ورقيه؟

كان قدوم المفتش في حالة إذا كان وقت مجيئه محددا بشكل مسبق مثل قدوم الأفراد الممثلين للسلطة، لأن كل مظاهر الزيف والخديعة والكذب تبدأ في المؤسسة، أو هو نوع من الطوارئ يحدث حتى على مديرها! مثلما تبدأ مظاهر الزيف عند قدوم أصحاب السلطة من تبييض للبلاط ومن زرع للأشجار ومن جمع للأزبال وتنظيف وتلميع... مع علم رجالات السلطة جيدا بهذا الزيف وهذا النفاق المستملح والمستحب دوما من طرفهم!

في بداية عهدي بمهنة التعليم كنت لا أستوعب ذلك! فكذلك نفس الزيف يحدث بالنسبة لعدد من المفتشين حين قدومهم، وفيما أذكره يتم تغيير التلاميذ بين الأفواج فيتم استقدام النجباء منهم في الفوج الذي سيحضر فيه المفتش للدرس إذا كان وقته محددا من قبل، كما يتم إعلام

التلاميذ باللباس جيدا والاعتناء بهندامهم، ويمكن لبعض الأساتذة أن يعفي بعض المتعثرين دراسيا من المجيء يوم قدوم المفتش ويتم تقديم كل ما هو جيد في حضرته، مثل الدفاتر المنظمة والتي تحوي نقطا عالية! كنت ألاحظ الكثير من حالات الطوارئ! مع أن المفتش دوره يتمثل في وقوفه على الصعوبات التي يعاني منها الأستاذ والتلميذ على حد سواء.

أليس دوره هو التأطير؟ أليس دوره هو معرفة سبب العلة وتقويمها وتصحيحها؟ فلماذا الخوف من المفتش؟ لماذا في العلاقات التراتبية في الوظائف تعني الخوف أكثر من الموظف الذي هو أعلى رتبة منك؟ هل المفتش ينحصر دوره في التفتيش عن النقائص فقط لدى الأستاذ وتذييلها في تقاريره؟ أم هي نظرة خاطئة مسبقة عن التفتيش وعن المفتشين؟ أم هو تكريس لنفس الفكرة المترسبة في الذاكرة التعليمة ويصعب محوها؟ أليس من أدوار المفتش مساعدة الأستاذ على تجاوز الصعوبات والاستفادة من خبراته وحنكته وتمرسه؟

قلة هم المفتشون الذين يتركون البصمة عند الأساتذة على كونهم غير مراقبين غير محبطين وغير مرعبين! فمن بين هؤلاء أول مفتش تأطرت على يديه هو نقيض للهالة المرسومة حول المفتش التي نجدها عندما تطأ أقدامها المدرسة من طرف الأساتذة أنفسهم! ومن أقصده مفتش ليس كهؤلاء ولا يختلف اثنان حول مهارته وخبرته العالية ومعاملته الراقية، وإنسانيته الشديدة! فالإنسانية مطلب إجباري في حياة البشرية، وفي كثير من المهن! مهما اختلفت المهام والظروف والمساطر، وللأمانة التعليمية سأذكر اسمه إنه "الياسمين ادريس" وبالضبط أسمه "الياسمين مولاي ادريس" أطال الله عمره إذا كان على قيد الحياة، وألف رحمة عليه إن كان بدار البقاء.

كان حين قدومه بسيارته المتواضعة جدا، يقف وسط ساحة المدرسة في مكان يراه فيه الجميع، ولا يختبئ كما يفعل الكثيرون وهم يؤدون مهامهم كمراقبين، مثل بعض رجالات الشرطة أو رجال الدرك الذي قد يختفي وراء شجرة وهو يمسك بجهاز "مراقبة السرعة"! ثم يشرع الأستاذ الياسمين ادريس في مجموعة من الطقوس! فهو يعطي للقسم المراد الدخول إليه بظهره، ويبدأ في استخراج الأوراق من محفظته وترتيبها ببطء شديد -ولو أنني متأكدة أن هذا النوع من الأشخاص كل أموره تكون مرتبة مسبقا - فيبقى على هذا الحال مدة ليست بالهينة، وكأن لسان حاله يقول لك: رتب أوراقك وكل أمورك فإنني سأهل عليك ضيفا![1]

أذكر أنني كنت بصدد تقديم درس المحفوظات أو ما يسمى الآن قراءة شعرية بالمستوى الثالث، ولا أذكر أنه في فترة تدريبي وممارستي للدروس التطبيقية بمدينة الجديدة حضرت مرة لهذه المادة، فلم أتدرب عليها قط، فألقيت الدرس أمام هذا المفتش بطريقتي وانتهيت منه بكثير من العشوائية، وغير محترمة لكثير من مراحل القراءة الشعرية! وعند انتهاء الحصة أخذ يذكرني بطريقة جد مؤدبة بأنواع القراءات التي درسناها بمركز تكوين المعلمات والمعلمين، كالقراءة الوظيفية والقراءة المسترسلة والقراءة الشعرية التي أعرفها حق المعرفة، لكن هي عادتي إذا كنت أمام أي شخص يمت للتعليم بصلة يتكلم أمامي فإنني لا أقوى على استعراض معلوماتي أمامه خجلا مهما تأكدت منها، بل أتحول فقط إلى مستمعة جيدة!

ومما قاله لي: إنك كالملكة في قسمك وأنت أدرى بتلاميذك من أي شخص آخر، وهذه مملكتك ولك الحق في التصرف في هذه العلاقة

1- قول دوترانس Dottrerens: «إن من يفتش هم الجنود الذين تنحصر وظيفتهم في الطاعة المطلقة، أما المربون فلا يفتشون». من كتاب "شخصية المدرس المغربي، الهوية والتوافق" ص 50.

الخاصة بينكما، وليس لأحد أن يتدخل بينكما مهما كان ولو مفتشا! وما قمت به كان جيدا وجعل التلاميذ يحفظون النص بتكرار الأبيات الشعرية، لكن إذا رغبت في ذلك وإذا سمحت فيمكن أن نستعين في مثل هذا النوع من القراءات الشعرية في نفس الآن بما هو بصري وسمعي وأن نزاوج بينهما، ويمكن لك أن تمسحي بعض الأبيات على السبورة مع الاحتفاظ ببعضها... إذا قبلت بهذا الاقتراح وإذا...وإذا...! كتب تقريرا عني فيه الكثير من الإشادة بمجهودات الأستاذة وتوفرها على الوثائق كاملة...وغيرها، ثم منحني النقطة المستحقة (امتياز) تزكية لي في السنة الأولى عن عملي، لأننا آنذاك كنا نجتاز امتحان الكفاءة المهنية في المراكز قبل تخرجنا.

وبعد ذهابه وكالعادة فالأساتذة يجتمعون دائما ويتساءلون عن كيفية مرور الحصة التفتيشية/البعبع! فحكيت لهم عن لباقة المفتش وأدبه وسلاسته في التعامل... فقالوا لي: لا غرابة في ذلك إنه الياسمين ادريس، فهكذا طبعه دائما، كما أن تفتيشه يكون عبارة عن حصة إفادة كبيرة، ونبهني زملائي على أن طريقة إلقائي لتلك الحصة كان بها الكثير من الهفوات! وبأن ملاحظاته لي بتلك الطريقة الذكية ما هو إلا تصحيح لهفواتي وبأنه وجوب وليس اختيار! لكنه أشعرني أنني ملكة في قسمي فعلا وما هو إلا ضيف وسيرحل. لكنني أنا من سأمكث دائما في مملكتي! ومن يومها وأنا أتبع طريقته التي نصحني بها في مراحل القراءة الشعرية، فأتمكن من تحفيظ أغلب التلاميذ في وقت وجيز وبطريقة سهلة جدا، وتعلمت منه واستنتجت أن مثل هذه الدروس يجب أن يتم تحفيظها في الفصل لا أن يؤمر التلاميذ بالحفظ في بيوتهم ثم معاقبتهم في القسم إن هم لم يستظهروها، وقس على ذلك مجموعة من المواد خصوصا الشفهية منها.

لن أنساه ما حييت، تذكرته بمعية ثلة من الأساتذة الذين عملوا معي في بداية تعييني بعد مضي أكثر من عشرين سنة بعد أن التقينا في حفل زفاف ابن أستاذة وصديقة عزيزة مقربة جدا مني، فتذكرناه وأخذنا نشيد بمعاملته وكفاءته، فهو المفتش الوحيد الذي استحضرناه ونحن نتكلم عن ذكرياتنا حتى مع الأساتذة المزدوجين منهم، مع أن الياسمين ادريس هو مفتش أول تخصص "معربين فقط"، فالناس الطيبون يبقون عالقين في الذاكرة كما الخبيثون.

يحكون عن هذا المفتش أنه تصادف مرة وحضر في حالة انفعال شديد لأستاذ بسبب تعطل دراجته النارية، وربما كان كل ذلك مراوغة منه بسبب تأخره عن الحصة! فما كان من هذا المفتش الياسمين ادريس إلا أن مد هذا الأستاذ بقدر من المال بعد أن رآه يضرب وجهه بسلسلة دراجته النارية المعطلة ولتذمره الشديد بكثرة الخسائر التي يتكبدها جراء الطريق والبعد عن العمل!

ويشهد لهذا المفتش بالكثير من المعاملات الإنسانية التي تميزه، فهل هذا التعامل تلقنه في مركز تكوين المفتشين؟ هل عن وعي أم عن اضطرار؟

إنها الخصوصية التي تمتاز بها بعض الأطر وبعض الأشخاص، وتميزهم عن غيرهم ممن يطبقون شروط التعامل المهني بحياد ودقة متناهية! فمثل هؤلاء الأشخاص يفضلون المرونة في التعامل وإزالة الفوارق التراتبية لصالح مهنهم وأثناء التوجيه والإرشاد مع كثير من الإنسانية التي تطبع جميع تصرفاتهم. فلولا هاته الصفات لما تمكنت من هضم توجيهات السيد الياسمين ادريس بتلك السرعة، ولما حفرت بذاكرتي كل هاته السنين وأنا بأول سنة بمهنة التدريس[1].

1- وبهذا الصدد فالدكتور تمحري عبد الرحيم في كتابه "شخصية المدرس المغربي، الهوية والتوافق" يقول : «من المعلوم أنه كلما كانت الخبرات الأولى سارة ومشجعة، فمن المتوقع أن ينجح الفرد في مهنته، ويحبها ويكون في الوقت نفسه شاعرا بالرضا عن

فزملائي في المهنة كانوا يتوجسون أحيانا من قدوم المفتشين، وذلك لحالة الطوارئ التي تحل بالمؤسسة حين تشريف أحدهم ضيفا علينا! فغالبا بعد مضي فترات أو بضعة أشهر ليست بالقليلة على غيابهم فإنهم يتوقعون قدومهم، فكنت دائما أطمئنهم بحدسي بأن لا يجزعوا لأنها أشهر فصل الشتاء، فالمفتشون لا يؤطرون شتاء خصوصا في المناطق القروية حيث يتطلب الوصول للفرعيات عبور طرق وعرة غير معبدة، مع ما يتطلب ذلك من وقت ليس باليسير وما يعتري ذلك من غموض في الطريق. ففي كل فصول الشتاء التي درست فيها طيلة هذه السنين التي فاقت العشرين، لم أشهد قط قدوم مفتش فيها! أتراهم يكرهون العمل في هذا الفصل مثلي!

ففي فصل الشتاء وفي المجال القروي بفرعياته حيث كنت أعمل، كنا نعيش الكثير من النقائص مع انعدام لكثير من الشروط للقيام بالمهام المنوطة بنا في مهمتنا! فكم درست والأمطار تشاركني وتلاميذي القسم؟ ليس بصوت دقات قطراتها بل بانسيابها وسط قسمي وأنا أدرس بنواحي الدار البيضاء، فكنت لا أملك حينها إلا أن أزحزح بعض الطاولات بالتلاميذ مفسحة لها المجال لتتساقط بكل حريتها وتتشارك معنا الدرس! كما أنني مرة أتممت طريقي إلى المدرسة مع زميل لي وكل ملابسنا مكسوة بالأوحال بعد أن انزلقت بنا دراجته النارية التي أقلني عليها في مدخل الطريق الغير معبدة التي تبعد حوالي ثلاثة كمليمترات عن المدرسة التي نعمل بها التي تتحول في فصل الشتاء لحلبة تزلج بنية اللون وليست بيضاء لأنها تكون مكسوة بالأوحال.

العمل الذي يقوم به، بل قد يساعده ذلك في الابتكار والتجديد والإنتاجية في عمله، لإن ما يصطلح عليه بعض علماء النفس بالمشهد الأول (First scene) في الحياة المهنية يعتبر عاملا حاسما في الصحة النفسية للمدرس».

فالمفتشون لا يؤطرون شتاء! بل قد يبدأون في التوافد على المدارس والفرعيات منها كالفراشات حين تصبح المروج خضراء اللون، وجميلة بزركشة ألوانها المزينة بمختلف الأزهار الحمراء والصفراء والبنفسجية ومروجها الخضراء التي ترعى بها مختلف الحيوانات من أبقار بيضاء هي لونها يقتحمه سواد فيعطي لوحة ربانية جميلة، وأبقار حمراء بلون الوبر وأغنام ترعى هنا وهناك. ففي مناطق مثل هاته يمكنك استنشاق الهواء النقي بمنطقة "أولاد حدو" الغير بعيدة عن مدينة الدار البيضاء حبيبتي التي تعلوها كل مظاهر التلوث والقذارة والأوساخ على جدران منازلها وعلى أوراق اشجارها وفي أغلب دروبها وأحيائها.

ففي المناطق القروية حيث كنت أعمل يتم التصالح مع الطبيعة بقساوتها ومع الحيوانات بشراستهم، وهناك حيث عملت لأكثر من ستة عشر سنة تعلمت الكثير وتعرفت على كثير أمور عن قرب كنت أجهلها في موطن عيشي أغلب سنين عمري بالبيضاء التي لا وجود فيها للحياة القروية بمظاهرها الطبيعية العذراء وبمسقط رأسي بمدينة تادلة، فالمناطق القروية لا زالت تشهد الكثير من مظاهر الحياة الغير حضرية التي بدأت تعرف زحف المدن وتغير نمطها خصوصا مثل هذه القرى القريبة من المدن. فمرة أمسك أحد زملائي الأساتذة بثعبان يزيد طوله عن متر ونصف لا زلت أذكر جيدا لون جلده الأصفر الفاقع المزين بسواد حالك، فجاء يستعرض علينا طوله ضاحكا بعد أن قتله وهو يمسك برأسه.

أصبحت أرى الثعابين بأم عيني ماثلة أمامي أنا التي تخاف من صرصور وتقيم الدنيا وتقعدها إذا رمقته مارا ولو بعيدا عني.

أي روح مواطنة عنها نتحدث

لماذا في بلداننا نتعذب من أجل الوصول لشيء هو قاب قوسين منا ولو كان يسيرا جدا وهو حق لنا؟ ودوما نصطدم بشتى أنواع العراقيل لأشياء من حقنا حتى يستغني الكثيرون عن المطالبة بها أو البحث عنها.

ولماذا لا ننال أقل حق من حقوقنا؟ ولما يتم تكريس نفس الحقيقة من أشخاص أعلى تراتبية في المجتمع؟ إلى أقل وأبسط فرد في مجتمعاتنا؟ حين تسمع من الجميع عليك التنازل عن القضية وعليك بالتسامح! ولا أعرف كيف يمكن التسامح في الكرامة وفي الوطنية وفي الإنسانية؟ لا أعرف كيف وجدت نفس الأفكار عند الأستاذ الجامعي الذي استشرت معه وعند الطبيب الذي أعطى لابني شهادة طبية مدة عشرين يوما، وعند البناء وعند المساعد في الورش الذي كان يقوم ببعض الإصلاحات بمنزلي أيام وقوع الحادث هو ذاك الاستسلام والخضوع نفسه، هو الخضوع الذي غرس في أنفسنا إلى درجة الاستبلاد فكيف نتجرأ ونغرسه في الآخرين؟ أم هي تجارب كثيرة يخلص فيها الناس لنفس النتائج أم هي حقوق دوما تضيع إلى غير رجعة؟

هذا ما سمعته حين تم الاعتداء على ابني ذي الاثنا عشر ربيعا بشكل سافر داخل مدرسته الخاصة المزودة بأجهزة للمراقبة من طرف أربعة أشخاص من بينهم راشدين بالقوة الجسدية، وذلك بدفعه على الجدار بقوة ومحاصرته مع السب والقذف بأشنع الألفاظ المنحطة في حقي أنا أيضا على الرغم من تواجدي في المكان، كما يحدث دائما، فالمجتمع

الذكوري متفنن حتى أثناء الغضب في التلفظ بأقبح وأقدح الكلمات في حق المرأة الأم التي تحضر في هذه المواقف بقوة كأقسى أنواع الإهانات وقعا على الخصم. وكل هذا حدث لابني داخل المؤسسة التي يدرس بها أمام العديد من الأطر الإدارية والعاملين بها مع التوثيق بآلات التصوير "الكاميرات" المنتشرة بالمؤسسة وتوفر على الجميع الكثير من الدفاع والتبريرات، لكن المدعية هنا ما هي إلا مواطنة مغربية كأي نملة في وطنها لا تساوي حتى سماع صرختها وهي تداس تحت الأقدام والمسماة "ماجدة بنت محمد" هي هويتي الدالة على عروبتي وعلى تديني، أما المعتدية على ابني والتي ذهبت مرتين إلى قسمه وهي تصرخ بوجهه لائمة له على تطاوله على ابنها دون أن يحاول ردعها أي أحد من العاملين بالمؤسسة، وعلى محفظته التي كسر جانب منها قبل أن تهجم عليه هي وصهرها وابنيهما بالعنف الجسدي والمعنوي فهي المسماة ناتالي (NATHALIE) الدالة هي هويتها على أنها غربية، فهي فرنسية شقراء، شعرها غير أسود ولا تضع عليه غطاء. وبعد مرور أكثر من سنة لازالت شكايتي بمخفر الشرطة قابعة هناك، وبالمحكمة التي قال لنا بها وكيل الملك: «كيف سنعرف عم الطفل الذي اعتدى على ابنكم وما العمل إذا كان لديه عشرة أعمام؟ كيف ستعرفه المحكمة؟ إذن ما العمل؟ ومن الذي يمكنه أن يعرف؟ وأين نتالي في الموضوع؟ فهي لا تذكر!

الجميع نصحوني بأن لا أقتص بنفسي من طفلها كما فعلت هي بابني خصوصا أمام قضائنا!!! وقد نويت ذلك فعلا وخططت له، لكن لم أكن بالشجاعة الكافية مثل (ناتالي NATHALIE)، ولم أكن بقلة الوعي نفسه وقلة الأدب نفسها لأنني مربية!

كان أقصى ما بذلته الشرطة من مجهودات أنها استقدمت أحد عائلة الطفل / المغربي، على أساس أنه هو المعتدي والذي يحمل نفس اسمه لكن اتضح ويا للمفاجأة أن لا علاقة له بالموضوع، وقد سرحته فيما بعد الشرطة بكل بساطة دون أخذ أقواله ودون عمل محضر له على أساس أنه ليس الشخص المعتدي على ابني في تماطل سافر وتلاعب على رجال الشرطة وعلينا وضياع وقتنا ووقتهم الذي يحتاجونه في خدمة قضايا المواطنين وقضايا هذا الوطن! مع حرماني لابني نتيجة لهذا الاعتداء من لعبه وممارسة حياته الطبيعية كطفل -كانت الفترة نهاية السنة الدراسية- حين اقتاده كل مرة لمركز الشرطة وللمحكمة وعند الطبيب، وانتكاسته من جديد وبكائه كل مرة وخوفه حين يستحضر ظلم عائلة هذا الطفل/ المغربي، زميله في القسم، واعتداءِ أفراد عائلته عليه كلما قدناه لمراكز الشرطة أو المحكمة ورفضه نطق الكلمات النابية التي سمعها منهم أمامي وخجله من ذلك، وكتابته لها على ورقة بعد أن طلب منه أحد رجال الشرطة كتابتها، فهو ابن أستاذة وغير مسموح له بنطق أية كلمة نابية، وبالمقابل لا يحضر الآخرون المعتدون المحصنون بالأم الفرنسية أو ابنها المحظوظ بانتمائه لها.

وأتخيل لو عكست الآية لا سامح الله، وكنت أنا المعتدية ماجدة بنت محمد في بلدها على ابنها وسط الحرم المدرسي؟!

ألن ينشر الخبر كل وسائل الإعلام الفرنسية وتتناقله وسائل التواصل الاجتماعية صوتا وصورة؟ ألن تقوم فرنسا وتقعد وتنشر بالبند العريض خبر اعتداءِ عربية مسلمة على طفل أمه فرنسية في ديارهم الفرنسية ووسط مؤسساتهم التعليمية! ولما لا تنسب القضية لعمل إرهابي لأنني أغطي رأسي؟ وقد تدخل على الخط كل جمعيات حقوق الطفولة والإنسان !!

أين هو حق طفولتنا التي تنهك وسط مؤسساتنا التعليمية دون أن

تكلف المؤسسة عبر موظفيها تقديم اعتذار بسيط لابني؟ حين ذهبت مشتكية لمديرة المؤسسة، أخبرتني أن (ناتالي NATHALIE) مسلمة. فهمت أنه كيف لي أن أجرؤ وأطالب بحق ابني من فرنسية مسلمة؟ فيكفينا إسلامها لنصمت فهي ذات دماء أوروبية وليست دماء عربية.

بعد هذه الحادثة لم أعد أعرف كيف سألقن أبني مبادئ المواطنة وكيف سأشرح له حقوقه وواجباته حين يستظهر علي دروس التربية الوطنية؟

وكيف سألقنه بعد هاته الحادثة مبادئ روح المواطنة؟ كيف سأمنع مشروع هجرة ابني للضفة الأخرى الذي يبدو لي من الآن هروبه بحثا عن حقوق لمسها هي موضوعة من أجل الآخر مقابل ضياع حقوقه بأم عينيه؟

كيف سأكذب عليه بعد الآن وأخبره بحكمة «قطران بلادك ولا عسل بلدان الناس»؟؟؟.

فلازالت قضيتنا مسجلة ضد مجهول.

وإذا كان المهاتما غاندي قد أخرج الامبراطورية الإنجليزية من الهند بفضل سياسة اللاعنف، فلم أستطع الدفاع عن ابني بسياسة اللاحق.

وإذا كان أضعف وأصغر قطة تستطيع الذَّوْذ عن صغارها إن اقترب منهم أحد المتطفلين، فلم أستطع حماية ابني أو الذوذ عن حقه لأن رحمي ليس كرحم ناتالي.

أغيثوا معطوبي التعليم...!

هم أموات أحياء، هم فئة لا يستهان بها من نساء ورجال التعليم ينتمون لوزارة التربية والتعليم يمارسون المهنة التي تنتج لنا أجيال من نساء ورجالات الغد، الذين هم الطاقات والاستثمار الحقيقي للبلد ولكل البلدان، فالاستثمار في ميدان التعليم هو الاستثمار الأول والقاعدة الصلدة التي ينبني عليها الهرم الاجتماعي، وإذا كانت هذه الفئة التي لا يستهان بها هم مرضى نفسانيا غير معترف بحالتهم ! فكيف سنستثمر في فلذات أكبادنا في هذا الوطن؟ وكيف سنضع القواعد الصلبة لبناء مجتمعنا؟ هم مرضى لا يبدو عليهم المرض للعيان لا قد يلمسه أولئك الأطفال الصغار -خصوصا- دون فهم منهم أو إدراك أن ذلك الأستاذ أو الأساتذة ليس مكانه بينهم ولا يصلح نهائيا للتلقين بل هو يحتاج أكثر منهم -وهم يمدون له أياديهم البضة الصغيرة- إلى من يأخذ بيده إلى من يحيله على العلاج إلى من يوضح له طلاسم القوانين المعقدة وطريق دهاليزها المظلمة لينعتق من حالته التي غالبا لا يكون واعيا بها وأحيانا كثيرة تؤدي به -لعدم التدخل في الوقت المناسب- إلى الضياع المهني وأحيانا إلى الضياع الحياتي.

بينت الدراسات التي تناقلت نتائجها الصحف الوطنية أن 48٪ من المغاربة يعانون من مشاكل نفسية أي ما يقارب مواطنا واحدا من بين اثنين، هذه النسبة يمثل منها نساء التعليم ورجاله مجموعة أشخاص ناهيك عن عدد غير المحصيين وغير المعترف بحالاتهم من اضطراب

الهلع والرهاب الاجتماعي واضطراب القلق العام والوسواس القهري واضطراب ما بعد الصدمة...

عن هؤلاء الذين يمارسون المهنة ويدخلون في صراع مع مدراءهم أو مع آباء وأولياء تلاميذهم. أو ما نراه من تجليات بعض أنواع مظاهر العنف الاجتماعي بين التلاميذ والأساتذة الذين لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم لأن المرض ينخرهم لسنين، فالرخص المرضية تمنح ولا تقبل مهنيا حتى من طرف باقي الأطر تلك التي تمنح للأمراض العضوية أو حين تحدث كسور واضحة في الجسم غافلين عن الكسور النفسية الداخلية وهي أمر وأدهى، فيمكن للمكسورة رجله أو يده أو أي عضو من أطرافه وهو سليم النفسية أن يمارس مهنة التعليم وهو سليم العقل، أما الآخر المحطم نفسيا فلن ينتج لنا إلا حصص تعليمية محطمة ممارسة على أطفال أو مراهقين أو شباب هم في أمس الحاجة إلى نساء ورجال تعليم سليمي العقل والجسم وليس إلى معطوبي النفسيات أو يعانون من أمراض عصبية خطيرة.

التدريس عملية تعليمية /تعلمية فاعلة إنسانية بين أشخاص، معلمين متعلمين وليس أداء وظيفيا بين شخص وأوراق، يمكن لهذه الفئة من الأحياء الأموات مهنيا خصوصا الذين أمضوا أكثر من عشرين سنة في التدريس أن يؤدوا خدمات كثيرة بعيدة عن التدريس كمتصرفين إداريين أو أي مهمة تابعة لوزارة التربية الوطنية لكن بعيدة عن النشئ، والتدخل السريع من طرف مجموعة فاعلين يشترط فيهم تتبع مثل هذه الحالات بنزاهة ورصدها، حتى يتم الحد من الكثير من الهدر الدراسي بسبب كثرة الشهادات الطبية لهؤلاء وحتى لا يتم استنزاف الكثير من خزينة وزارة المالية لأشخاص في عداد الموتى بل السعي إلى تفعيلهم إداريا وصنع الحياة في قلوبهم.

الفهرس

مقدمة 9
ومضات من حياة طالبة ميتة 15
سنة موت/ سنة حياة... سنة شؤم/ سنة أمل 25
المستر جيكل... والمستر هايد وبداية الدخول الدراسي
سنة 2017/2016 37
الجامعة... أساتذتي وشعبة السوسيولوجيا 43
ومضات من حياتي 69
إخفاقاتي... اختباراتي... نجاحاتي... وانعتاقي 89
فلنقم ونوف الأساتذة التبجيلا... فقد كادوا أن يكونوا رسلا..... 119
آخر رسائل الألفية الثالثة 129
البيضاء.. حبيبتي.. 139
جامعتنا... مكتبتنا مفخرتنا؟ عرقلتنا!........................ 149
المفتشون لا يؤطرون شتاء.. المفتشون كالفراشات............ 157
أي روح مواطنة عنها نتحدث 167
أغيثوا معطوبي التعليم...!.................................. 173